أَعْمَالُ الْبِرِّ

بين رمضان والحج



فضيلة الشيخ/ د. محمد الدبيسي
حفظه الله وعفا عنه

أَعْمَالُ الْبِرِّ

بين رمضان والحج

فضيلة الشيخ
د/ محمـــد الـــدبيسي
حفظه الله وعفا عنه

الطبعـــة الثانية
ذو القعدة ١٤٣٢ هـ
أكتوبر ٢٠١١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

بعد أن صدرت الطبعة الأولى من هذه الرسالة باسم " **أيام البر**"، ألقى فضيلة الشيخ/ د.محمد الدبيسي عدة خطب توضح علاقة هذه الأيام بين رمضان والحج بإصلاح سير المرء إلى الله تعالى، فتم إضافة هذه المعاني في فصل جديد وهو الفصل الأول من هذه الرسالة.

واستمرارا لشرح المعاني المتعلقة بالأخلاق الرديئة التي تمنع أهل الإيمان من التحقق بالبر قام فضيلته بشرح حديث النبي ﷺ: « **لاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَجَسَّسُوا**» [1] فتم إضافة هذا الشرح في فصل جديد آخر وهو الفصل الثاني. وقد تم استكمال هذا الفصل بما ورد من المعاني المكملة له من رسالة " أيام البر".

كما تم إضافة معانٍ أخر جديدة من خطب فضيلة الشيخ التي شرحت الأحاديث الحاضة على اصطناع المعروف وتفريج الكربات، فتم إضافتها لمعاني الإحسان إلى الخلق في فصل جديد ثالث. وقد تم استكمالها أيضًا بما يناسبها من معاني الرسالة السابقة.

وكان اختيار عنوان هذه الرسالة " **أعمال البر بين رمضان والحج**" ليكون ذلك أكثر عونًا للقارئ على إدراك مضمونها، واستنباط فحواها.

---

(١) رواه مسلم (٦٧٠٣) ، ولفظه (عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: « لاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ تَحَسَّسُوا وَلاَ تَنَاجَشُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا »).

وقد كنا نأمل أن نقوم بمزيد التنقيح والتصحيح لفصول هذه الرسالة ولكن الأيام المباركة لموسم الحج قد هلت علينا، فآثرنا أن نقوم بإخراج هذة الطبعة على ما قد يكون فيها من أخطاء طمعًا في أن ينتفع المطالع لها بما فيها من خير وبركة وأن يلتمس لنا العذر فيما قد يجد فيها من نقص أو خلل.

ولله الفضل والمنة وهو الموفق والمستعان ؛؛؛

مسجد

الهدي المحمدي

الجمعة ٢٥ شوال ١٤٣٢هـ

مقدمة

إنَّ الحمدَ لله نحمدُه ونستعينه ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، مَنْ يَهْدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له ومَنْ يُضْلِل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعدُ،،،

فإنَّ أصدقَ الحديث كتابُ الله تعالى، وخيرَ الهدي هديُ محمد ﷺ، وشرَّ الأمور مُحْدثاتُها، وكلَّ محدَثة بدعةٌ، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

اللهم صلِّ على سيدنا محمد النبي، وأزواجِه أمهاتِ المؤمنين، وذرِّيته وأهل بيته، كما صليتَ على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

فمواصلة لما قد بدأناه في هذه السلسلة التي تهتم بأحوال المؤمنين في الأشهر المعلومات، وهي أشهر الحج، تأتي هذه الرسالة بعد رسالة «ماذا بعد رمضان؟»، وهي تشتمل على مجموعة من الخطب ألقاها **فضيلة الشيخ محمد الدبيسي** - حفظه الله وعفا عنه - في سنين عدة، وهي تتعرض لما نسميه **أيام البر**.

وأيام البر هي هذه الأيام الموصولة برمضان، والتي فتحها الله تعالى منحةً منه، حتى يتهيأ فيها المؤمنون المتقون لموسم الحج الأكبر وحتى يُعدوا أنفسهم لخير أيام الدنيا، في العشر الأوائل من ذي الحجة، ليُحصلوا المغفرة في عرفات، فتكون المغفرة بعد المغفرة رحمةً بهم، أو استدراكًا لهؤلاء الذين لم يحصلوا المغفرة والعتق من النار في رمضان.

لذلك كانت هذه الرسالة توضيحًا لشيء من **معاني البر** ليبدأ أهل الإيمان في ترتيب أعمالهم مع الله تبارك وتعالى وتهذيب هذه الأعمال وإحاطتها بالآداب والفضائل اللازمة في هذه الأيام من أيام البر وذلك تحقيقًا لأحد أمرين:

الأول: أنهم إنْ تحققوا بمعاني البر التي أمر الله تعالى بها، وكان عندهم أشواق وحنين إلى زيارة بيته يوشك أن يُكَافِئهم الربّ ﷻ بأن يُوفِقهم لزيارته، وأن يحملهم إلى بيته فيحجوا، ليكون ذلك الحج سببا لمغفره ذنوبهم، ويعودوا كيوم ولدتهم أمهاتهم.

الثاني: أنهم إن لم يحصلوا زيارة بيت ربهم، كانت هذه الأيام السبيل لأن يتحققوا بأعمال البر التي فتحها الله جل وعلا لتكون سبب المغفرة في عرفات فيغفر الله لهم ذنوب السنتين الآتية والماضية.

وعندئذ يصبح الكل في رحمة الله، أهل الموقف في موسم الحج معيدين فرحين برحمة الله ومغفرته، وكذلك أهل الأمصار ممن لم يصل إلى بيت الله تعالى فرحين مسرورين برحمة الله ومغفرته التي تنزلت على جميع خلقه في يوم عرفات.

لذلك كان مطلوب أهل الإيمان: **كيف تكون هذه الأيام عونًا على اختيار الآخرة، وسعيًا لتحصيلها ونبذًا لهذه الدنيا من القلب والعمل ومن الفكر والنظر ومن التشوف والتطلع،** ليخرجوا من أيام البر وقد صارت الآخرة هي المسيطرة على قلوبهم وأعمالهم، ليروا عندئذ بركة الله ﷻ ورحمته وليروا كيف ستأتيهم الدنيا وهي راغمة.

وفي النهاية فما كان من صواب فمن الله تعالى وحده، وما كان من خطأ فمنا ومن الشيطان، والله ورسوله منه بريئان، ورحم الله امرأ أهدى إلينا عيوبنا، نسأل الله تعالى أن ينفع به قائله وكاتبه وناشره والناظر فيه إنه سميع الدعاء.

مسجد

الهدي المحمدي

الفصل الأول:

بين رمضان والحج

رأينا في حديث رمضان(٢) أن الشارع الحكيم أكد على أهمية تصحيح علاقة المرء بالله تعالى، فجعل رمضان شهرًا للقرآن يكثر منه تلاوة وتدبرًا، وأمره جل وعلا بمداومة الصيام والقيام له، وأمره كذلك بالاعتكاف بقلبه وقالبه عليه، وإكثار الذكر والإقبال على الله، وترك الخلطة بالناس، وتخفيف الطعام والشراب والنوم، وتغيير المألوفات التي هو فيها، كل ذلك حتى تتنزل عليه الرحمة، وحتى يكون من عتقائه من النار المغفور لهم.

وقد علق الله تعالى المغفرة في رمضان على القيام والصيام، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: « **مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ** »(٣)، وقوله: «**مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**» (٤)، وقوله: «**مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ**

---

(٢) للاطلاع على التفاصيل يرجى مراجعة رسالتي "حال المؤمنين في شعبان" و " حال المؤمنين في رمضان ".

(٣) رواه البخاري (٣٨)، ومسلم (٧٦٠)، ولفظه (عن أَبي هُرَيرةَ رضيَ اللّه عنهُ، عن النَّبيِّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم قالَ: « مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا واحْتِسابًا، غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذنْبِهِ »).

(٤) رواه البخاري (٢٠٠٩)، ومسلم (٧٥٩)، ولفظه (عن أبي هريرة رَضِيَ اللّه عَنْهُ، قَال: كانَ رسُولُ اللّهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم يُرَغِّبُ في قِيَامِ رَمَضَانَ مِنْ غيرِ أَنْ يَأْمُرَهُمْ فِيه بعزيمةٍ، فيقُولُ: « مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمانًا واحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ »).

إِيمَانًا واحتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهَ»[٥] وكل ذلك حتى تصح علاقة المرء بالله تعالى.لذلك كان خروج المرء من رمضان وقد ظهرت عليه آثار المغفرة أهم العلامات التي تدل على حسن العلاقة مع الله سبحانه وتعالى.

واستكمالًا لحديث إصلاح علاقة المرء مع الله تعالى، كان الحديث بعد رمضان[٦] يدور حول معنى مهم، وهو: كيف يرتبط حال المرء بعد رمضان بأحواله في رمضان ؟ كيف يواجه كيد الشيطان الذي يشتد عليه ليفسد عليه ما كان منه من أعمال في رمضان؟ إن الارتباط برمضان والحنين إلى الطاعة، والمجاهدة على التحقق بها، والمحاولة في الإسراع إلى باب الله سبحانه وتعالى مرة أخرى هو السبيل لذلك كما بينا.

أيام البر وتصحيح علاقة المرء بالله تعالى

وحال استكمالنا لهذا الحديث في هذه المرحلة التي يحاول المرء فيها استكمال سيره إلى الله، واستكمال دينه وتوحيده لربه، واستكمال أسباب مغفرته ودخوله الجنة، إذا بالله جل وعلا يوالي على أهل الإيمان مواد محبته، وسبل مغفرته، وطرق الوصول إليه جل وعلا، ويمهد لهم هذه الطرق، وينيرها لهم، فيفتح لهم موسمًا جديدًا من مواسم الرحمة؛ وهو أيام البر، **وهي الأيام بين رمضان والحج وهي الموصلة إلى موسم الحج**.

(٥) رواه البخاري (١/٢٢ ، رقم ٣٧) ، ومسلم (١/٥٢٣ ، رقم ٧٥٩) . ولفظه (من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له ما تقدَّم مِنْ ذَنْبِهِ، ومن قام ليلةَ القَدْرِ إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له ما تقدَّم مِنْ ذَنْبِه).

(٦) للاطلاع على التفاصيل يرجى مراجعة رسالة "ماذا بعد رمضان؟ ".

وأيام البر هذه يهدف فيها أهل الإيمان لشيئين لمواصلة إصلاح علاقتهم مع الله تعالى، **الأول:** الاستمرار في الارتباط بأحوال رمضان، بأن يغفر الله لهم، ويعتق رقابهم من النار، فإنك إن خرجت من رمضان مغفورًا لك أو غير مغفور لك، فلا زلت ملتصقًا برمضان تريد أن يُغفر لك، ومن ثم بدأت أعمال البر مرة أخرى، ولكن على تصحيح ما فات، بأن تعمل أعمالاً جديدة تكون سببًا في تحقيق تلك المغفرة، بالالتصاق في رمضان، وسببًا في أن تكون بارًا، فازدادت مهمتك، وازدادت مسئوليتك، وارتفعت أعباؤك.

الثاني: التهيؤ لموسم الحج الأكبر، الذي يغفر الله سبحانه وتعالى فيه للناس الغفران العظيم، فيفيضوا مغفورًا لهم، فيكون عمل أهل الإيمان في أيام البر وسيلة إلى الله تعالى ليبلغهم هذه الأيام، فيغفر لهم فيها، أو أن يزيدهم من فضله سبحانه وتعالى فيبلغهم بيته الحرام.

وإن كانت المغفرة في رمضان -كما ذكرنا- متعلقة بالقيام والصيام، وبما يتعلق من أعمال بين المرء وبين ربه سبحانه وتعالى، إذا بالنبي ﷺ يقول في الحج: «**لَيْسَ لِلْحَجِّ الْمَبْرُور جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّة**»[٧]، والحديث الثاني: «**مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُث وَلَمْ يَفْسُق رَجَعَ كَيَوْمِ**

(٧) أخرجه البخاري (١٧٧٣) ومسلم (١٣٤٩) ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ).

وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[٨] والمعنى المستفاد من ذلك هو: **أنه علق المغفرة في الحج على أن يكون المرء بارًا**، وعلى أن **يتخلص المرء من الرفث والفسق والأخلاق السيئة المرذولة**. ومن ثم كانت هناك علاقة وشيجة قوية بين أن يخرج المرء صحيح العلاقة مع الله تعالى بعد رمضان، مغفورًا له، وبين دخوله موسم الحج.

وتتلخص هذه العلاقة في أن المرء إن كان قد خرج صحيح السير إلى الله بعد رمضان، فإنه **لا يسكتمل سيره إلى الله تعالى ولا يستكمل المغفرة في الحج الأكبر، إلا بأن يصحح العلاقة بينه وبين الناس**، بأن يتخلص من إثمه وفسقه وكذبه ورفثه وسخريته وأخلاقه السيئة، وغير ذلك مما نهى النبي ﷺ عنه. ثم يستكمل سيره بأن يكون بارًا، كما سنذكر معاني البر من الأتيان بأعمال الشريعة كلها من ناحية، ومن ناحية ثانية الإحسان الكامل التام الذي يرجو به المغفرة والرحمة والجنة بينه وبين خلق الله؛ ابتداء من بره بنفسه، وبره بوالديه، وبره بأهله وولده، وبره بإخوانه ومشايخه وأهل الفضل عليه، ثم بره بالناس أجمعين، حتى يصير من الأبرار الذين يتنعمون في الدنيا والآخرة بمعرفة الله ومحبته والقرب منه،كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣]، و نعيم هؤلاء الأبرار إنما يكون في الدنيا والآخرة، من لم يحقق نعيم الدنيا لم يحقق نعيم الآخرة.

(٨) أخرجه البخاري (١٥٢١)، ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ).

فتحت لك أيام البر بعد رمضان إذًا، لتستغلها الاستغلال الأمثل في أن تلقي بحملك على الله جل وعلا، وتبدأ في التعبد له سبحانه وتعالى، واستدراك ما فات، والزيادة مما هو آت، والتوبة مما كان، ثم تسير إليه سبحانه وتعالى. حينئذ تنتظر موعود الله في تلك الأيام، فكان خروج المرء في رمضان مغفورًا له، أو خروجه ينتظر المغفرة بعد رمضان، كل ذلك تهيئة له لأن تأتي عليه تلك الأيام، وأن يفتحها الله له باليمن والبركة والخير، وأن تعود عليه بالمغفرة والعتق من النار: (**أفيضوا عبادي مغفورًا لكم**)[9] أو (**من صام عرفات غفر له ذنوب السنة الماضية والسنة الآتية**)[10] فيخرج المرء معيدًا في كلا العيدين.

فالمرء مطالب في هذه الأيام بأن يستكمل دينه وأعمال سيره إلى الله، **لأنه لا يتمكن من إقامة هذه المعاني من معاني البر في الحج، إلا من درَّب نفسه عليها** ليحقق النصف الثاني من تصحيح علاقته بالله تعالى، لأنه لا يستكمل صلاحه، ولا سيره إلى الله، **إلا بأن يصلح بينه وبين ربه، وأن يصلح بينه وبين الخلق**، ولا يظن أحدٌ أنه بإتيانه للعبادة قد صلحت أحواله واستقام أمره، وهو قد أفسد العلاقة بينه وبين الخلق، كلا، لا يستطيع السير إلى الرب إلا باستكمال ذلك النصف من إصلاح العلاقة بينه وبين الخلق.

(٩) أخرجه البزار، وقال الهيثمي: في مجمع الزوائد (٣/٢٧٧) وقال: رجاله موثقون.
(١٠) رواه مسلم (١١٦٢) ولفظه (صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ).

فلا يمكن لكاذب غشاش، أو لساخر مرتاب، أو لناقل نمام، أو لمضيع لوقته، مقصر في حق أبيه وأمه، مقصر في حق إخوانه، مقصر في حق مشايخه وعلمائه، مقصر في كذا وكذا وكذا، أن ندعي له حسن العلاقة مع الله تعالى، أو أن له أحوالاً عظيمة مع الله، أو أنه يمكنه السير إلى ربه، وهو ينظر إلى بقية الخلق بعين التقصير والتفريط، وبعين الإهمال لهم ولحقوقهم التي قررها النبي ﷺ عليه، سواء في أدنى درجاتها؛ من رد السلام، وعيادة المريض، وتشميت العاطس، وغير ذلك، إلى أعلاها؛ من أن يحب لإخوانه ما يحب لنفسه، بل أن يؤثر إخوانه على نفسه.

فالمرء لا يستطيع تصحيح علاقته مع الله تعالى وهو يسير بجناح واحد، وهذا الجناح الواحد ليته كان تامًا ! فمن الذي قد تمت له أعمال آخرته، وأعمال علاقته بالله تعالى، وزكت هذه الأعمال ونمت، وجاهد نفسه على أن يكون الأقرب إلى الله، ونافس في السير إليه، وسابق في أن يكون الأول في الوصول إليه حتى نقول: إن جناحه الأول قد كمل؟ لم يكمل لأحد بعد. ومن ثم كان الأمر المتعلق بأيام البر وأعمال البر وسيرة البر ـ سواء كانت في تصحيح السير، وانتظار المغفرة، أو أن يخرج المرء بارًا ـ هو مطلوب المؤمنين اليوم.

يتهيأ هذا المرء البار بعد ذلك لأن يختم عامه بالتوبة إلى الله تعالى، لأن المؤمنين ـ أبرارًا كانوا أو غيره ـ لا بد أن يتوبوا كما قال تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (النور: ٣١)، فإذا به قد خرج من عامه وقد

استصحب معه البر والتوبة والمغفرة، وقد أعده الله تبارك وتعالى بهذه المنح، وهذه العطايا من عطايا أسباب النصر.

هذا التائب البار هو الذي يستطيع أن يبدأ السنة الجديدة، هجرة وجهادًا وبذلاً على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى قدم سيرته صلى الله عليه وسلم.

لا يمكن أن يستصحب سيرة النبي ﷺ ليجاهد معه، إلا من تحقق بأسباب النصر، وقام بتلك الأعمال التي ترتفع بها راية الله تعالى، ومن ثم كان هؤلاء الأبرار الذين خرجوا في نهاية العام وقد استصحبوا هذا البر العظيم من الله تعالى، أساسًا لبناء الدولة التي بناها النبي صلى الله عليه وسلم، وكانوا أساسًا للانتصارات التي وهبها الله تعالى لأهل الإيمان في ملاقاتهم للكفرة، على ما كان من المؤمنين من قلة وذلة في العدد والعدة ، وإنما لما تحققوا بأسباب النصر الصحيحة بدأوا في هذا السير إلى الله تعالى، ونزل عليهم نصر الله تعالى.

وذلك لأنه لا يستطيع الهجرة إلى الله تعالى وإلى رسوله، قبل أن يهاجر ذنوبه ومعاصيه، فلا يستطيع أن يهاجر ويترك أهله وولده ووطنه وداره، وأن يترك ذلك كله لله، إلا هؤلاء الذين تابوا إلى الله وخرجوا لا ذنب لهم. ترى هذا المتعلق بالدنيا، المائل إليها، الغافل عن آخرته، يستطيع أن يترك أولاده وماله وأرضه ووطنه ليهاجر إلى الله؟ كلا، **وإنما حتى تكون الهجرة ويكون الجهاد ، كان لا بد من إعداد رجاله ، وإعداد زاده، وأن يتزود هؤلاء الرجال بذلك الزاد الذي هيأه الله تعالى وفتحه لهم من رمضان إلى نهاية عامهم**، فيخرجوا ليحققوا هذا النصر، بعد أن خلوْ من أمور الدنيا وأعمالها

والركون إليها والتشبث بها فيها، حينئذ يمكنهم أن ينتصروا فيها هم مقدمون عليه من أسباب الهجرة ومن أعمال الجهاد. بغير ذلك لا يتحقق للمؤمنين شيء، وذلك هو الناموس الذي تقتضيه حكمة الله تعالى.

لذلك رأينا كيف فتح الله تعالى لهم هذه الأيام وملأها بالرحمة والمغفرة؛ ليكون أهل الإيمان متحملين لمسئولية دينهم، ومسئولية تحقيق أسباب النجاة، ومسئولية رفع راية الإسلام، وأن يختار الله تعالى منهم الشهداء، وأن يرفع لهم الدرجات، وأن يحقق لهم - سبحانه وتعالى- ما لم يحققه لغيرهم.

وإذا لم يقم المؤمنون اليوم بمثل هذه الأحوال الحسنة والأعمال المرضية؛ ليرفعوا عن دينهم وعن وطنهم وعن بقية إخوانهم وعن بقية المسلمين فمن الذي يقوم؟ ومن الذي يرفع؟ بل سيبقى كل أحد في هذا التأخر، ويبقى كل أحد في إقباله على الدنيا، وتزوده منها، ونسيانه الآخرة، وغفلته عنها.

إن ما وصل إليه المؤمنون اليوم من الأحوال السيئة، والانكسارات والهزائم، ومن تغلب الكفرة عليهم في مواضع كثيرة، ومن علو الكفار في تعاملهم معهم، ومن استباحة الأرض والعرض والمال والثروة، كل ذلك إنما وصلوا إليه لعدم حملهم تلك المسئولية التي شرفهم الله تعالى بها في هذه الأيام، والجميع ـ السامع والمتكلم ـ مشارك في هذه المأساة، كل على قدر تقصيره وتفريطه في أن يتحقق بأسباب النصر، فكلما تخلفت أسباب النصر في عبد من عباد الله تعالى السائرين لرفع رايته، واجتمعت هذه الأسباب الضعيفة لتكون أسبابًا قوية، إذا بالانكسارات تتوالى على المؤمنين، ولا

ينتصر المسلمون بهذه الجموع الضعيفة في دينها وإيمانها، أو بهذه الجموع الضعيفة في سيرها إلى الله تعالى، قلبًا وبدنًا، أو بهذه الجموع التي قد امتلأت بهذه الأخلاق الرديئة المرذولة من أخلاق الشيطان واتباع الهوى والنفس، كيف ينصرهم الله تبارك وتعالى وهم على هذا الحال من الغفلة، وعدم التجهز للآخرة والعمل لها؟

فنحن مسئولون عن هذه الانتكاسات، وتلك الهزائم، وتلك الوقائع التي تقع بالمؤمنين في هذه الأيام، ومن ثم كان الهم ثقيلاً على قلوب المؤمنين، أن يبدأوا في مجاهدة النفس في هذه الأيام من أيام البر لتكون عونًا وزادًا، أن يرفع الله تعالى البلاء النازل من المسلمين على المسلمين، ومن الكفرة على المسلمين، ومن غيرهم مما نرى في هذه الأيام التي قدر الله تعالى فيها هذه المصائب؛ ليفيق المؤمنون إلى ربهم، وليعاودوا الكرَّة مرة أخرى، وليتقدموا إلى الله تعالى، متحملين لمسئوليتهم في الذود عن هذا الدين، وفي الدفاع عنه، بما ينبغي أن يتحققوا به أولاً من عوامل النصر في أنفسهم وأهليهم وأولادهم، وفي علمهم وعملهم وسلوكهم، وفي دعوتهم وتقربهم إلى الله تعالى، بألا يقصروا في شيء من ذلك ألبتة.

الطريق لذلك في هذه الأيام يبدأ من السعي للقيام بأعمال البر للفوز بالمغفرة في عرفات، لأن الله جل وعلا يقول لعباده في عرفات: « **أَفِيضُوا عِبَادِي مَغْفُورًا** »[(١١)]

---

(١١) رواه البزار (٢/٢٦٧) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/٣٤٧) : رواه البزار ورجاله موثقون. ولفظه (.. فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَهْبِطُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَيُبَاهِي بِكُمُ الْمَلائِكَةَ ، يَقُولُ : هَؤُلاءِ عِبَادِي ، جَاءُوا شُعْثًا شُفَعَاءَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، يَرْجُونَ رَحْمَتِي وَمَغْفِرَتِي ، فَلَوْ كَانَتْ ذُنُوبُكُمْ كَعَدَدِ الرَّمْلِ ، وَكَعَدَدِ الْقَطْرِ ، وَكَزَبَدِ الْبَحْرِ ، لَغَفَرْتُهَا ، أَفِيضُوا عِبَادِي مَغْفُورًا لَكُمْ وَلِمَنْ شَفَعْتُمْ لَهُ).

ولمن لم يحضر الموقف، ولم يتيسر له طريق الحج، فقد فتح له باب المغفرة في عرفات، بعد أن تهيأ في الأيام العشر في ذي الحجة، كما قال ﷺ: «صِيام يَوْم عَرَفَة يُكَفِّرُ ذُنُوب سَنَتَيْن؛ المَاضِيَة وَالآتِيَة»[١٢] إلى آخر هذه المرغبات التي ترغب المؤمنين في أن يبذلوا وسعهم، لأنهم لو بذلوا دنياهم كلها لتحقيق المغفرة لكان شيئًا قليلاً هينًا، ولكنهم لما عظموا الدنيا وحقروا المغفرة والآخرة كان جزاؤهم ما نحن فيه، ولذلك ينبغي أن يعدلوا من سيرهم، وأن يعكسوا اتجاههم إلى ربهم، **بأن يكون الاتجاه إلى الله لا إلى الدنيا، إلى الطاعة لا إلى التفريط، إلى العزم والجد وارتفاع الهمة والعزيمة، لا إلى التواني والكسل والتسويف**، أن يرتفع ذلك إلى تجهيز جهازهم إلى الله تعالى والسير، بدلاً من الغفلة، قبل أن يؤخذوا في يومهم أو ليلتهم، وأن يفاجأوا بملك الموت على رءوسهم واقفًا يقول: اخرجي أيتها النفس إلى الله تعالى.

الشوق إلى أعمال البر

و لا يكمل الحديث عن أيام البر إلا بذكر الشوق إلى أعمال البر، والشوق إلى بيت الله تعالى وزيارته. وذلك لأن **مقصود زيارة البيت أن تتهيأ لزيارة رب البيت ورؤيته في الميعاد المضروب يوم يقوم الناس لرب العالمين**، فإذا لم يتحقق المرء في هذه الأيام بالذات بهذا الشوق لزيارة بيت ربه، وهذا الشوق لرؤية ربه جل وعلا، وهذا الشوق لتحقيق هذا الشرف الذي لا شرف بعده في الدنيا والآخرة، فمتى يتحقق؟ **إن المسارعة إلى**

(١٢) رواه مسلم (١١٦٢) ولفظه (صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ).

القيام بأسباب تحقيق هذا الشوق ينبغي أن تكون الشغل الشاغل لأهل الإيمان. وطريق ذلك المسارعة في أعمال البر هذه الأيام، لتكون أسبابه التي يقدمها إلى الله أن يحمله إلى بيته؛ لأنه لا يحمل على أعمال البر والطاعة، ومحبة الأعمال التي يترتب عليها المغفرة، ومحبة المجاهدة بالمال والنفس في هذه الأيام، لا يحمل على ذلك كله إلا الشوق، فإذا لم يشتق المرء، إذا لم يكن عند المرء شوق للمغفرة، فأنى يغفر له؟

لأنه إذا لم يحقق شوق المغفرة، وشوق العمل الصالح، وشوق زيارة البيت الكريم، وشوق رفع راية الدين والإسلام، والشوق إلى لقاء الله تعالى، والشوق إلى أن يبذل نفسه رخيصة لله جل وعلا، فأنى لهؤلاء أن يبذلوا ويجاهدوا ويرفعوا الراية مرة أخرى؟! فليس عندهم ما يدفعهم إلى ذلك، وإنما هم راكنون إلى الدنيا، مخلدون إلى الأرض، نائمون فيما هم فيه مما يظنون أنهم قد أتوا بهذه الأعمال، وكأنهم ليس هناك مثلهم في هذه الحياة الدنيا من الطائعين العابدين، أومن غير ذلك مما يظنون بأنفسهم، وأنهم قد قاموا بما عليهم من واجبات، وبذلوا تلك الحقوق لله تعالى المحقوقون بها إلى الله جل وعلا !

ومن ناحية أخرى، فإن المرء إذا ما قصر في هذه الأشواق، تراه يحمله ربه إلى بيته؟ **إذا لم تفكر في الحج ولم تطلبه ولم تقدم له أسبابه ، تُراك يأتيك هذا الحج سهلاً؟** كمن هو مهموم به، يريد أن يخرج إليه، ويود أن يبذل مالاً ووقتًا وجهدًا، ويسأل ويذهب، ثم بعد ذلك يتعبد إلى الله تعالى بأنواع التعبد التي تهيئ له طريقه إلى بيته، تمهيدًا لرؤية

الرب في الموعد المضروب ؟ تُرى هؤلاء الذين لا يشتاقون إلى ذلك، تراهم يشتاق الله إليهم ويحبهم ويرفعهم على غيرهم، ويهيئ لهم الطريق إلى تحقيق هذه الأشواق؟!

ذلك الشوق الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ (البقرة: ١٢٥)، فهم يذهبون إليه ويعودون ويظنون أنهم لم يقضوا وطرهم منه، ولم يأخذوا حظهم في الذهاب إليه، ولا زال حنينهم مرتفعًا باقيًا يحنون إليه في الرجوع، فإن رجعوا ما زال الحنين باقيًا لأن يرجعوا، وهكذا حتى يلاقوا ربهم.

إن هذا الحنين والشوق هو الذي يحملهم على بذل كل شيئ لله تعالى، حتى يحب ربهم لقاءهم كذلك، وألا يقصروا في تلك الأسباب فيدل ذلك على تقصيرهم في الشوق إلى الله جل وعلا، وفي عدم محبتهم لقائه: « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ »[١٣].

إن ذلك الشوق لا بد أن يكون القائد والحادي للمؤمنين اليوم، حتى ييسر لهم طريقهم، ويمهد لهم زيارتهم لبيته سبحانه وتعالى، ويأخذهم إليه، فإن أخذهم إليه انتظروا مقصود هذه الزيارة من رؤية الرب يوم القيامة في الموعد المضروب.

ولكن الناظر في الأحوال هذه الأيام لا يرى شوقًا ولا حنينًا ولا ميلاً إلى الله تعالى وانجذابًا إلى زيارته - إلا من رحم الله تعالى- وإنما العيش كيفما اتفق ! إن البون شاسع والفارق عظيم بين هؤلاء الذين بذلوا لربهم، ونفروا إليه، وسارعوا لتحقيق

(١٣) أخرجه البخاري (٦٥٠٨) ومسلم (٢٦٨٣) ولفظه (عَنْ أَبِي مُوسَى عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ).

مرضاته، يحدوهم الشوق، ويحملهم الحنين إلى الله سبحانه وتعالى وزيارة بيته، وبين أولئك المتكاسلين الذين ضُرب عليهم التسويف، والغفلة، والبعد، والجفاء، وقلة الاكتراث ببيت ربهم وبزيارته .

واعلم أيها المسكين أنه إذا لم يكن عندك شوق لأعمال الإيمان، أو الطاعة، أو زيارة البيت، أو المغفرة، أو لطول القيام، وكثرة الذكر، أو لقراءة القرآن وتنزل أدوية القرآن على أمراض القلب شفاء ورحمة وهدى وضياء، فإنك لن تستفيد من ذلك بشيء أبدًا. وذلك لأن الله تعالى يحب المقبلين عليه، وهم إن أقبلوا عليه شيئًا قليلاً أقبل عليهم شيئًا كثيرًا، إن ساروا إليه خطوة رفعهم بها درجة وحط بها عنهم خطيئة، وهكذا في كرمه ومعاملته لعباده.

إذًا هذه القضية هي محك الإيمان هذه الأيام، محك العمل الصالح، هي الحد الفاصل الذي يميز السائر إلى الله المشتاق إليه، من غيره من السائرين كيفما اتفق، ناموا كان بها، قاموا كان بها، قصروا كان بها، فرطوا كان بها، ثم ينتظرون بعد ذلك رحمة الله، ورفع البلاء، وأن يكونوا من الأبرار !!

فهلا ابتدأ المؤمنون حال الشوق، أو أنه ما زالت أشواقهم هي تلك الأشواق لتحصيل الدنيا الرحبة الجميلة الواسعة ، التي لا يحققون فيها إلا الذنوب والمعاصي والسيئات، أو إلا التي يرفعون فيها راية الغفلة واللهو والبعد عن الله جل وعلا، التي يقعون بسببها فيما حرم الله وكره الله، التي يقعون فيها في نسيان آخرتهم والرحيل إلى ربهم.

إذا لم يتأثر المرء ويبكي على ما هو فيه، ويتحسر على أن حرم ومنع ذلك كله، فأنى يحصل شيئًا من رحمة الله تعالى؟ وأنى يستقبل أنوار طاعاته سبحانه تعالى بما يستحق من الشكر والإقبال وبها يستحق من المجاهدة والعمل ؟

الشوق إلى الحج وتجديد طريق الآخرة

إن الشوق الذي نتكلم عليه إنما مبناه على فهم حقيقة الحج. وحقيقة الحج ومقصده تتلخص في هذه الكلمات المحدودة: **هجر الشهوات وترك الملذات والاقتصار على الضرورات والتجرد في الحركات والسكنات لرب الأرض والسموات**. وهذا هو سبيل الأنبياء، وسبيل النبي ﷺ، وهو الذي ينبغي أن يكون سبيل طلاب الآخرة، فإن فهم المرء هذا المعنى يوشك أن يكون الحج سببًا لأن يكون من طلاب الآخرة.

لما اندرس طريق الآخرة، وأغلق، وقل سائروه بعد المسيح عليه السلام، إذا بالله تعالى يبعث النبي ﷺ **ليجدد للناس طريق الآخرة**، هذا الطريق الذي ينبغي أن يسير فيه **هؤلاء المؤمنون الذين يريدون الآخرة، ليس أولئك الذين يريدون الدنيا والآخرة، وتتصارع الدنيا والآخرة في قلوبهم**، وهو طريق الامتناع عن الشهوات، والانكفاف عن الملذات، والاقتصار على الضرورات، والتجرد لرب الأرض والسموات في الحركات والسكنات.

وهذا الطريق مهجورٌ، خاصة في هذه الأيام التي مازالت الدنيا والآخرة تتصارعان في قلوب أهل الإيمان، وإذا تصارعت الدنيا والآخرة في القلب فالانتصار للدنيا لا محالة، والميل إليها لا محالة، والانغماس فيها لا محالة، فكل ما فيها اليوم إنما

يحمل على المسارعة إليها، والمشاغلة فيها، والانغماس في أوحالها، أما الآخرة فطريقها مهجور إلى هذه الدرجة التي نحن فيها !

ولأن هذا الطريق هو طريق الأنبياء، فقد وجدناه ﷺ كافًا عن الشهوات، متقللاً من الملذات، يقتصر فيها على الضرورة في الدنيا، يقول: « مَا لِي وَلِلدُّنْيَا ، إِنَّمَا أَنَا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا »[14] فتجرد لربه سبحانه وتعالى، إقامة لدينه في نفسه، وإقامة لدينه ولدعوته في غيره، إلى أن أتاه اليقين، صلى الله عليه وسلم، وذلك سبيله وسبيل الأنبياء قبله، ولما اندرس هذا السبيل بعث صلى الله عليه وسلم ليجدده، وليظهر أنواره، وليبين آثاره، وليوضح معالمه، حتى يسير فيه الناس، وكان من هذه المعالم التي بينها النبي صلى الله عليه وسلم طريقًا للآخرة: حج بيت الله تعالى.



(١٤) أخرجه أحمد (٤٢٠٨) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٤٩/١١): ورجال أحمد رجال الصحيح غير هلال بن خباب وهو ثقة. ولفظه (عَنْ عَبْدِ الله ، قَالَ : اضْطَجَعَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم عَلَى حَصِيرٍ ، فَأَثَّرَ فِي جَنْبِهِ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، لَوْ أَمَرْتَنَا اتَّخَذْنَا لَكَ فِرَاشًا يَقِيكَ مِنَ الْحَصِيرِ ؟ فَقَالَ : مَا لِي وَلِلدُّنْيَا ، وَمَا أَنَا وَالدُّنْيَا ، إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا).

الفصل الثاني:

هجر الأخلاق الرديئة

بعد أن أشرنا فيما سبق لأهمية الأيام التي تسبق موسم الحج ودورها في صياغة العلاقة بين المرء وربه وكذلك العلاقة بين المرء وبين غيره من الخلق، وصلنا إلى أن الحج هو سبيل المرء لتجديد طريق الآخرة، وأن إصلاح العمل في أيام البر هو سبيل السير في طريق الآخرة سواء فتح الله تعالى على المرء بزيارة بيته أو كان ممن تفضل الله تعالى عليهم بالمغفرة في عرفات.

ويوضح قول النبي ﷺ: «**مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**»[١٥]، وقوله أيضًا: «**لَيْسَ لِلحَجِّ الْمَبْرُورِ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّة**»[١٦] أن الحج حتى يكون سببًا للمغفرة وسببًا لدخول الجنة، ينبغي أن يتحقق فيه أمرين:

الأول: أن يتجنب أعمال الرفث والفسوق والعصيان.

الثاني: أن يأتي في حجه كل أعمال البر.

---

(١٥) أخرجه البخاري (١٥٢١)، ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ).

(١٦) رواه البخاري (١٧٧٣) كتاب الحج، باب وجوب العمرة وفضلها، ومسلم (١٣٤٩) كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة.

ونبدأ في هذا الفصل تبيين الأخلاق الرديئة التي ينبغي أن يفتش المرء في نفسه عنها ويجاهد نفسه في أيام البر على التخلص منها حتى لا تكون سببًا للوقوع في الفسوق والعصيان والخروج عن أمر الله تعالى مما يُحرم به المغفرة في عرفات، ولا يعود بحج مبرور الجنة جزاؤه، لأن البر لا يكمل إلا بترك العصيان والفسوق؛ إذ كيف يكون بارًّا مع العصيان والفسق ؟

وهي القضية المهمة التي ينبغي أن يتفطن المؤمنون لها، لماذا هم مقصرون في القيام بالأخلاق الحسنة والسجايا المضيئة التي تكون سببًا في أن يبارك الرب جل وعلا لهم في وقتهم وجهدهم، وأن يجاوروا النبي ﷺ في الآخرة ؟

الجواب: لأنهم لا يزالون في المرحلة السفلى من الغضب للنفس والتحاسد والتباغض والتجسس والتدابر وأسبابه التي نهى الشارع عنها، فكيف يتأتى لك أن تعطي إخوانك حقوقهم، فضلاً عن أن تحب لهم ما تحب لنفسك أو أن تؤثرهم على نفسك، وأنت مازلت تحسدهم وتبغضهم وتريد لهم الشر !

ومن ثم فينبغي قبل البدء في الكلام عن حسن الخلق، أن نبدأ في الكلام عن الأخلاق المرذولة التي ينبغي أن يتخلى عنها المرء أولاً، لأنه لا يمكن أن يصل المرء إلى مرحلة الإحسان وهو لم يزل بعد في مرحلة الإساءة، **إنما يبدأ الإحسان من حيث تنتهي الإساءة** ، وذلك بعد أن ينقي المرء نفسه ويهذبها من الأخلاق التي تعيقه عن القيام بحقوق إخوانه، ثم يرتفع لمرحلة أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، كما جاء في الحديث: «

لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » [١٧] ثم الدرجة الثالثة ، التي ليس لها وجود ألبتة إلا من رحم الله، وهي أن يؤثرهم على نفسه كما قال: ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾ (الحشر: ٩)

إن هذا الطريق هو طريق البر، الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ **إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ** ﴾ (الانفطار: ١٢)، وهو الذي يوصل إلى مرحلة الإحسان التي ينتظر المرء بها الشوق إلى لقاء الله، والشوق إلى زيارة بيته، والشوق إلى المغفرة، والشوق إلى العمل الصالح، والشوق بعد ذلك إلى الهجرة والجهاد، كما كان حال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؛ فبعد هجرتهم ، إذا بالجهاد ترتفع رايته، وتسير ألويته، فتفتح قلوب الناس قبل أن تفتح أرضهم.

الحد الأدنى من درجات حسن الخلق

لذلك سوف نبين في هذا الفصل هذه الأخلاق الرديئة التي ينبغي أن يهجرها المرء، ومن لم يتحقق بذلك فليعلم أنه لم يتحقق بعد بالحد الأدنى من درجات حسن الخلق.

وهذا الحد ينبغي ألا ينزل تحته أحد، وهو الحد الفاصل للأخلاق، **وما تحته لا يكون للأخلاق منه نصيب**، وأصحابه لا يدخلون أبدًا في هؤلاء الذين يمكنهم أن يبذلوا

(١٧) رواه البخاري (١٣) مسلم (٤٥) ، ولفظه (عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : سمعت رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «لا يُؤمِنُ أحدُكُمْ حتَّى يُحِبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفسه »).

لله شيئًا، أو أن ينتصر بهم الدين، فضلاً عن أن يكونوا من الناجين عند الله تعالى يوم القيامة !

وهذا الحد يحفظ أهل الإيمان أولاً من هذه الأخلاق السيئة حتى لا ينزلوا إلى مستوى أقل من مستوى طلاب الدنيا. ثم بعد ذلك يرتفعون بأعمال الإيمان وحسن الخلق إلى تلك الدرجة التي بها يستطيع المرء أن يصل إلى الدرجة التي قال النبي صلى الله عليه وسلم فيها: « **إِنَّ المؤمنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ : دَرَجَةَ الصَّائِمِ القَائِمِ** » [١٨] .

لأنك تجد البعض من يصومون ويقومون وكذا وكذا، ولا يكون الصيام والصلاة وبقية أعمال الدين سببًا في رفع منزلتهم عند الله تعالى، لأنهم لم تتمثل فيهم درجات حسن الخلق وتجد الأقل في أعمال الدين الأحسن خلقًا قد ارتفعت درجته؛ فعلا بحسن خلقه درجة الصائم القائم كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم.

لذلك فلا ينتظر صاحب الخلق السيئ، الذين أفسد بينه وبين الناس، أن يكون له دين حسن؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (**بصلاح ذات البين يبلغ المرء درجة الصوم والقيام والصدقة**) [١٩] وذلك الخطاب من النبي ﷺ يبين قيمة صلاح ذات

(١٨) رواه أبو داود (٦٧٠٣) وصححه ابن حبان (٢٢٨/٢) ، ولفظه (عَنْ عائشة - رضي الله عنها - : قالت : سَمعتُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول : «إِنَّ المؤمنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ : دَرَجَةَ الصَّائِمِ القَائِمِ»).

(١٩) رواه أبو داود (٦٧٠٣) وصححه ابن حبان (٢٢٨/٢) ، ولفظه (عَنْ عائشة - رضي الله عنها - : قالت : سَمعتُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول : «إِنَّ المؤمنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ : دَرَجَةَ الصَّائِمِ القَائِمِ»).

البين، وذلك لأنها من الأمور التي يصلح بها القلب، والتي ينبغي أن يتنازل فيها المرء عن شيء من كرامته التي يدَّعي، ليبلغ درجة الصائم القائم المتصدق. ويبين هذا المعنى كذلك أن التدين لا يكمل - بل يكون مغشوشًا- إذا كانت تلك الأخلاق السيئة موجودة، فلا يُنتظر من أصحاب الأخلاق المرذولة أن يكون لهم دين في أنفسهم أو مع غيرهم، فضلًا عن آداء ما عليهم من الحقوق والواجبات لإخوانهم.

إن هذه الحقوق وتلك الواجبات، إن فقدها أهل الإيمان يومًا، فقدوا شطر دينهم. إن فقدوها دل ذلك على أنهم مازالوا تحت خط الإساءة، وأنهم لم يرتفعوا بعد لأن يوفوا بالإحسان والبر، بل بقوا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: « **دَبَّ إليكم دَاءُ الأُمَمِ قَبلَكم : الحسدُ والبغضاءُ** » [٢٠].

ويترتب على هذه المسألة، **أن يكون هَمّ كل أحد أن يتخلص من آفاته وعيوبه**؛ لأنه لن يكون بارًا إلا أن يمر بهذه المرحلة أولا. فهل الذي يقال له: أيها البار! يعني أيها البار الكاذب الضال! أو أيها البار المغتاب النمام! أو أيها البار الحاسد الباغض المتقاطع المتدابر المتشاحن الظالم! من الذي يقول ذلك؟! أيقال لمثل هذا: أنت بار؟! أم يقال له: اذهب فأصلح نفسك أولاً، وتخلص من هذه الأخلاق السيئة التي أمرك الشرع بها، حتى إذا ما تخلصت منها، وتحليت بالأخلاق الحسنة، يوشك أن تتحمل مسئولية نجاة

(٢٠) رواه الترمذي (٢٥١٠) وقال: حديث حسن صحيح، ولفظه (عَنْ الزبير بن العوام - رضي الله عنه - : أنَّ رسولَ اللّه -صلى الله عليه وسلم- قال : «دَبَّ إليكم دَاءُ الأُممِ قَبلَكم : الحسدُ والبغضاءُ، وَهي الْحَالِقَةُ أمَا إنِّي لا أَقولُ : تَحلِقُ الشَّعْرَ، ولكن تَحلِقُ الدِّينَ، والَّذي نَفْسي بيدِهِ، لا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حتَّى تُؤمِنوا، ولا تُؤمِنُون حتى تَحابُّوا، ألا أدُلُّكم على مَا تَتَحَابُّونَ بِهِ ؟ افْشُوا السلامَ بينَكم).

نفسك، ومسئولية رفع راية دينك، وأن تترقى إلى الدرجات التالية من محبة الخير لإخوانك كما تحبه لنفسك أو أن تؤثرهم على نفسك.

إن معاني الإيثار ومحبة الخير لو لم تكن قد وُجدت في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم لكان الحديث عنها ضربًا من الخيال، وإنما قد حدثت ووقعت مع هؤلاء المؤمنين المتقين، **والله تبارك وتعالى أعانهم لما رأى فيهم الصدق والإخلاص**، ورأى فيهم محبة الله تعالى وطاعته والتزام تعاليمه، ورأى فيهم أنهم كذلك يسارعون في الخيرات ويتنافسون فيها، لا يسارعون في تحصيل هذه الدرجات الدنيا ؛ لأن المؤمنين مطالبون بالتنافس في الدرجات العلى في البر والإحسان ، وليسوا مطالبين بأن يحصلوا الصفر ، أو أن يتنافسوا في الدرجات السفلى !

إن التنافس والتسارع والتسابق إنما يكون في أن يكون هو الأقرب والأحب إلى الله تعالى، **أما الدرجات التي لا قيمة لها فلا تنافس فيها ولا تحاسد، فمن أراد أن يأتي بالصفر فلا ينافس أحدًا**، ولا يسابق أحدًا !

والنقطة المهمة، والتي جاءت هذه الأيام لتكون فرصة للمؤمنين لأن يسعوا في تحصيلها، أن الله تعالى طيبٌ، لا يدخل عليه إلا الطيِّب المحض، كما قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] يعني: هؤلاء الذين قد تطهروا في الظاهر والباطن من الأخلاق الرذيلة كافة، لأنه **لا يجاوره في جنته سبحانه أصحابَ الأخلاق السيئة الخبيثة أبدًا**، لأن الجنة هي دار الطِيب المحض، كما أن جهنم دار

الخبث المحض. ولا يتحقق المؤمنون بهذه الطيبة إلا أن ينفضوا عن قلوبهم وألسنتهم وجوارحهم وظاهرهم وبواطنهم تلك الأخلاق الرديئة التي تعوق سيرهم إلى الله تبارك وتعالى، ومجاورتهم له في جنته جل وعلا.

والنية التي لا ينبغي أن تتخلف عن المؤمنين ليحققوا ذلك، أن يوطنوا أنفسهم عندما يستمعوا لكلام الله تعالى وكلام النبي ﷺ، أن يتبعوا أحسنه. وذلك لأن **معظم مصائب المؤمنين في أنهم يسمعون كلام الله ﷻ وكلام النبي ﷺ ولا يضعون في ذهنهم وعقلهم وقلوبهم أنهم ينبغي أن يسارعوا إلى تنفيذ هذا الكلام** وإلى مجاهدة النفس على تحقيقه، وإنما يسمعون وانتهت المشكلة، وعادوا إلى ما كانوا فيه، **لا بد لمن يستمع القول أن يتبع أحسنه**، ويبادر إلى تحقيق ذلك ليكتب في ديوان من فعل هذه الأفعال الحسنة، أو من قام بهذه الطاعات والقربات عند الله تعالى.

لعل هذا الأمر لا يمر كما مرت أعمال الخير والبر، تعبر من الأذن اليسرى إلى الأذن اليمنى إلى الخارج كأن لم يسمع المرء شيئًا!

فهذه دعوة هذه الأيام ومن لم يتحقق بها فلن تنفعه صدقة ولا صيام، ولا غير ذلك من أعمال الدين إلا أن يتخلص من تلك الأخلاق الرديئة، ويتحلى بالأخلاق الحسنة، وهي الدعوة التي يسير المرء عليها السير الحسن الذي يصل به إلى تثقيل موازينه، ومحبة النبي ﷺ، ورفعة الدرجة في الأولى والآخرة.

وليتذكر كل منا **أن أعمال البر هذه هي الطريق الذي إن سلكه المرء كان سببًا لأن يفتح الله تعالى عليه، بزيارة بيته** ويهبه الشوق والحنين والأخلاق الحسنة التي هي من أهم أخلاق الحجيج عندما يذهبون إلى بيت الله تبارك وتعالى، حتى يكون حجهم مبرورًا، فمهما جاهد المرء نفسه اليوم على أعمال البر يوشك إذا حمله الله تعالى إلى بيته أن يحقق بر الحج ويعود منه كما ولدته أمه كما قال النبي: « **من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من حجه كيوم ولدته أمه** »[21]، وإذا لم يوفقه المولى للحج في هذا العام فيكفيه أن حصل درجة الصائم القائم، وحصل هذه الدرجة من محبة النبي ﷺ والقرب منه، يكفيه أنه يفعل ما يثقل به موازينه ويرفع به درجته ويعلي به منزلته إلى جوار النبي ﷺ عند رب العالمين ﷻ.

التخلص من الآفات والأخلاق الرديئة

ونبدأ الكلام بتبيين المعاني الواردة في كلام النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: « **لاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ تَحَسَّسُوا وَلاَ تَنَاجَشُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا** »[22] وفي رواية: « **لاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَنَاجَشُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَدَابَرُوا وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ وَلاَ يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَا هُنَا « وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ » بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ**

(٢١) رواه البخاري (١٥٢١) كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور، ومسلم (١٣٥٠) كتاب الحج ، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة.

(٢٢) رواه مسلم (٦٧٠٣) ، ولفظه (عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: « لاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ تَحَسَّسُوا وَلاَ تَنَاجَشُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا »).

يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ. كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ »[٢٣] لعل ذلك يكون معينًا لأهل الإيمان على التخلي عن المرذولات والقبائح التي قد غرزها الشيطان في قلبه، وأخذ يحارب المرء بأسلحته التي قدمها له.

وذلك لأن الشيطان إذا دخل قلبك فوجد سلاحه؛ من الأخلاق السيئة من الحسد، والتناجش، والبغضاء، والتدابر، وكذلك من الغفلة، والغضب لغير الله تعالى، أخذ يقاتلك بها، حتى يهزمك تلك الهزيمة التي تكون سبب بلائك أولاً، وتكون سبب البلاء على من حولك من أهل الإيمان ثانيًا.

الحسد

وكان أول ما حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم التحاسد: « **لاَ تَحَاسَدُوا** » لأنه من الأسباب العظيمة التي تؤدي إلى الظلم، أن يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، وأن يتمنى زوال النعمة عنهم، وأن يحب أن يراهم دونه وأقل منه.

والحسد مركوز في فطرة الإنسان، فالمرء بفطرته لا يحب لغيره أن يسبقه، أو أن يرتفع عليه في الفضائل سواء كانت دنيوية، وإن كان لا خير فيها، أو دينية وهو

(٢٣) رواه مسلم (٦٧٠٣) ، ولفظه (عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: « لاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَنَاجَشُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَدَابَرُوا وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ وَلاَ يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَا هُنَا ». وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ « بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ »).

الأهم. ولخطورة ذلك الحسد فقد بدأ قوله صلوات الله وسلامه عليه بالنهي عنه، وكأنه يقول: **إن المانع لك من البر هو أنك تحسد إخوانك على ما هم فيه من فضل.**

وينقسم الناس فيما يجدوا في أنفسهم من دواعي الحسد لأصناف: **الأول:** أن يجد في نفسه الحسد **ولكنه لا يبغي على المحسود بقول ولا بفعل**، فلا يقوم بقول أو فعل يبين أنه يحسده، وأنه متضايق منه، وأنه يرى أنه خير منه، فيحاول أن يتعدى عليه بالقول أو الفعل، ويظهر له العداوة والبغضاء.

فإن لم يظهر منه ذلك، ولم تحدثه به نفسه، ودفع عن نفسه هذا الوسواس وذلك الإثم، والبغي والعدوان ووقف عند هذا الحد، ففي هذا الحال لا يكون آثمًا؛ لأنه لا له ولا عليه. فقد رأى من هو أفضل منه في الفضائل الدينية وحينئذ لم يبغ عليه لا بعدوان ولا بقول ولا بفعل، فكأن لم يكن شيء.

والصنف الثاني: أنه يتمنى زوال النعمة من المحسود. وهو نوعان: **من يتمنى زوال النعمة ليحصلها هو لنفسه** وهو الحسد المذموم ، **والثاني: من يتمنى زوال النعمة مطلقًا حتى ولو لم يحصلها هو لنفسه**، وهو **أشرهما وأخبثهما**، وهو النوع الذي كان سبب طرد إبليس من الجنة، وهو حسد اليهود.

فإبليس أخذ يمكر بآدم حتى أخرجه من الجنة، وهو آيس من الرجوع إليها، ولكن يتمنى زوال هذه النعمة من آدم ولو لم تذهب إليه، وهو الحسد الذي ذكره المولى

سبحانه وتعالى في اليهود وصفاتهم: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ (النساء: ٥٤).

وهو الواقع الذي يعيشه المسلمون، فإن رأى من أحد نعمة في دين، أو علم، أو صلاة، أو قيام بأوامر المسلمين، أو غير ذلك، تراه يود أن تزول عنه هذه النعم، بتلك النفسية السيئة التي لا ترجو رحمة الله تعالى ولا تخاف عقابه، بل إنه يزداد استرواحًا، **فهو يستريح حين يرى نعمة أخيه وقد زالت عنه، أو نعمة أخيه وقد آلت إليه، فهذا يدخل في الإثم.**

ترى هؤلاء المتحاسدون البغضة المتقاطعون المتدابرون، هم الذين يحملون دين الله؟ كلا؛ لذلك كان هذا هو الحد الفاصل في مسألة الخلق التي وضعها الله جل وعلا لعباده المؤمنين، إن نزلوا عندها وصارت فيهم هذه الأخلاق التي تتمثل في أخلاق اليهود وغيرهم، وتتمثل في أخلاق العصاة والفسقة الذين فسقهم الله تعالى بها، فأنى لهؤلاء العصاة الفسقة المتشبهين باليهود أن يكونوا هم من يتشرف بحمل هذا الدين ويسعون إليه ويدعون له !

كيف يحسد المرء إخوانه، ويظلمهم، ويخذلهم، ويغتابهم، ويسيئ بهم الظن، ويتجسس عليهم - ثم هو قد حمل لهم في قلبه البغضاء والشحناء، وما يوصل إلى هذه البغضاء؛ من الغيبة، والسخرية، والنميمة، والظلم، والخذلان، والتجسس، ويتمنى أن يشمت فيهم، لما وقع منهم أو لما أساءوا إليه فيه، ولا يستر عوراتهم، وغير ذلك من الأخلاق السيئة، ثم هو في نفس الوقت يعطيهم، ويصلهم، ويبرهم، ويحسن أخلاقه

معهم، ويحب لهم ما يحب لنفسه، ويقوم بحقوقهم التي أمر الله تعالى بها، والتي وصى النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين ألا ينزلوا عنها ؟!

وهناك صنفان آخران؛ **الأول:** من إذا رأى أخاه على هذا الحال نافسه في تحصيل الفضائل الأخروية؛ لأنه لا خير في أن ينافس أحدًا في الدنيا، إذا نافسك أحد في الدنيا فنافسه في الآخرة، لذلك يقول المولى عائبًا على هؤلاء القوم: ﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (القصص: ٧٩) كان ذلك سببًا لأن يهلك قارون بعد ذلك، ويوشك أن يهلكهم معه لتمنيهم ما هو فيه من تلك الأحوال الدنيوية، أما الأحوال الأخروية والفضائل الشرعية فإنه ينافس فيها.

فهذا الصنف إذا رأى أخاه على أحوال حسنة، نافسه في أن يحصلها، لا ينافسه في أن تزول هذه الأحوال عن أخيه، ولا يتمنى أن تذهب عنه وأن يراه على حال سيئ؛ لأنه في هذه الحالة لم يصل لقول النبي: « لا يُؤمِنُ أحدُكُمْ حتَّى يُحِبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفسه » (٢٤). **أتحب لنفسك أيها المسكين أن تزول عنك النعم في الدنيا والآخرة ؟ أتحب لنفسك أن تتعرى عن الفضائل الدينية والأخلاق المرضية الحسنة؟ أتحب لنفسك ذلك؟ فكيف تحبه لإخوانك؟**

بل العكس. لذلك فهذا الصنف من الأصناف الجيدة ، لأنه إن رأى إخوانه على شيء من تلك الفضائل سعى في تحصيلها، وطلب من الله تعالى أن يعينه عليها، وتمنى

(٢٤) رواه البخاري (١٣) مسلم (٤٥) ، ولفظه (عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : سمعت رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «لا يُؤمِنُ أحدُكُمْ حتَّى يُحِبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفسه »).

أن يكون في تلك الدرجات العالية، كما تمنى النبي صلى الله عليه وسلم أن يقتل ثم يحيى ثم يقتل ثم يحيى، وقال كذلك صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الذي عنده مال فهو ينفقه في وجوه الخير: « **لو أن لي مثل مال فلان لفعلت فيه مثلما فعل، فهما في الأجر سواء** » [٢٥] وكذلك هذا المعنى في ذلك التنافس ذكره النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: « **لا حسد إلا في اثنتين؛** رجل آتاه الله تعالى القرآن، **فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار. ورجل آتاه الله تعالى المال فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار** » [٢٦]،فبين صلى الله عليه وسلم أن ذلك **إنما يكون في فضائل الآخرة لا فضائل الدنيا، فضائل الدنيا لا خير فيها**، وهذا الحسد ليس بمعنى أن تتمنى أن تزول نعمته عنه، وإنما بمحبة ذلك الحال، وأن تكون في هذا الحال كمثله لا أن تتمنى زواله عنه، وهي الغبطة الواردة في الحديث

---

(٢٥) رواه الترمذي (٢٣٢٥) وقال: حديث حسنٌ صحيح ، ولفظه (عن أبي كبشة الأنماري – رضي الله عنه – أنه سمعَ رسولَ الله –صلى الله عليه وسلم- يقول : «ثلاث أُقْسِمُ عليهن ، وأُحَدِّثُكم حديثا ، فاحفظوه : ما نقص مالُ عبد من صدقة ، ولا ظُلِمَ عَبْد مَظْلَمَة فصبر عليها ، إلا زاده الله بها عِزا ، ولا فتح عبد بابَ مسألة ، إلا فتح الله عليه بها باب فقر» – أو كلمة نحوها -. زاد في رواية : «وما تواضع عبد للّه إلا رفعه الله ، وأُحَدِّثكم حديثًا فاحفظوه ، إنما هذه الدنيا لأربعة نَفَر : عبد رزقه الله مالا وعلما ، فهو يتَّقي في ماله ربَّهُ ، ويَصِلُ به رَحِمَهُ ، ويعلم أنَّ للّه فيه حقا ، فهذا بأفضل المنازل ، وعبد رزقه الله علما ولم يرزقْه مالا ، فهو صادقُ النية للّه ، يقول : لو أنَّ لي مالا لَعَمِلْتُ بعمل فلان ، فأجره بنيته – وفي رواية : فهو بنيته – فأجرهما سواء ، وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما، فهو يَخبط في ماله بغير علم ، لا يتَّقي فيه ربَّه ، ولا يصل به رحمه ، ولا يعلم للّه فيه حقا ، فهذا بأخبث المنازل ، وعبد لم يرزقْهُ الله مالا ولا علما ، فهو يقول : لو أنَّ لي مالا لعملت فيه بعمل فلان ، فهو بنيته ، وَوِزرُهما سواء»).

(٢٦) رواه البخاري (١٣٤٣) مسلم (٨١٦) ؛ ولفظه (عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِي –صلى الله عليه وسلم- قَالَ « لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ).

كما ذكر النبي ﷺ: «**يغبطهم الأنبياء والشهداء على منزلتهم من الله تعالى**»[27] فهذه الغبطة بأن تحب له ماهو فيه، وأن تتمنى بقاءه فيها، وأن تتمنى لنفسك أن تكون متخلقًا بهذه الأخلاق، ومتحريًا بتلك الفضائل، وأن تكون كمثله فيها، لا أن تتمنى زوالها عنه.

أما إذا عكسنا الحال **فقد صار أشبه باليهود في أنه يريد لإخوانه أن يتعروا عن الفضائل**، فبماذا ينفع هو أمة محمد صلى الله عليه وسلم؟ أو بماذا ينفع نفسه فضلاً عن أن ينفع غيره؟ **إنما هو بلاء على نفسه، وبلاء على غيره**.

والصنف الأخير وهو أحسن الأصناف، أنه إذا رأى أصحاب هذه الأحوال الحسنة وهذه الأعمال العلية أو تلك السير المرضية، من علم نافع وعمل صالح وسعي في مصالح المسلمين والدعوة إلى الله تعالى، وحركت شياطينه نفسه لأن يحسدهم، قَلَب ذلك الأمر على نفسه، وجاهدها، **وأطال إحسانه لهم ودعاءه لهم، ومحبة الخير لهم**، وزيادة ما هم فيه من أعمال وأحوال حسنة، وتقرب إليهم بأنواع القرب التي يرجو من الله تعالى أن يرزقه بها هذه الأخلاق الحسنة، فإنه بهذا الحال يرجو من الله تعالى أن يفتح عليه ذلك الفتح الذي يوده لإخوانه.

وهذا الحال العالي الذي ينبغي أن يتشوق المرء إليه كما تشوق إلى الحال الذي قبله، بأنه تمنى أن يكون عنده ذلك المال؛ لينفق، وعنده ذلك القرآن؛ ليقوم به آناء الليل

(٢٧) رواه الترمذي (٢٣٩٠) كتاب الزهد، باب ما جاء في الحب في الله، وقال: حديث حسن صحيح.

وأطراف النهار، وعنده ذلك العلم؛ ليعلم المؤمنين، ولينشر دعوة الدين، وليحفظ على المؤمنين شرعهم، وليكون بركة لهم حيث كانوا وحيث حلوا. أو أن يتمنى أن يقتل كما قتل فلان وفلان في سبيل الله. وأن يتمنى ذلك صادقًا لا أن يعبر عليه كالهاجس ثم ينتهي، وإنما يتمنى من كل قلبه أن يحقق هذه المنزلة؛ لأن الله أعلم بهذا القلب، ويعلم إن حقًا يريد ذلك أو لا يريد، فإن اطلع الله تعالى عليه، ورأى منه الإرادة، فإن الله يرفعه إلى هذه الرتبة ويعطيه أجر تلك المنزلة.

أما أن يجلس في الدنيا هكذا، لا تمني ولا شوق ولا دين، **وإنما كل همه أن يكون على هذا الحال السيئ مع الله ومع الناس**، فأنى بمثل هؤلاء أن يتقدم بهم دين أو أن ترتفع بهم راية الإسلام؟ وتلك الحال التي نتفكر فيها ويجب أن يأخذ كل أحد حذره منها؛ **ليكون** سباقًا بها إلى الخير، ينتظر بر الله تعالى إذا هو بر إخوانه، ينتظر بذلك رفع درجته **وأن يكون** سببًا لمغفرة ذنوبه وسيئاته، بل أن يكون سببًا لرفع درجته عند الله تعالى وقربه من الله جل وعلا.

إن المؤمن الذي عنده أشواق إلى بيت الله تعالى، فإن أشواقه وحنينه إلى تلك المنازل، ينبغي أن يبذل لها ما يمكن وما يكون في وسعه أن يبذله، ولا يقصر في هذا البذل؛ **لأنه إن بذل في الدنيا فالبذل في الآخرة أولى، وإن بذل في السوء فالبذل في الصلاح أولى**.

التناجش

ويستكمل النبي صلوات الله وسلامه عليه وصيته في التخلي عن الأخلاق المرذولة، فيقول: « وَلَا تَنَاجَشُوا». والتناجش هو كالمزايدة، بأن يزايد المرء على إخوانه ليحصل شيئًا بالمكر والخديعة في البيع والشراء. وكأن الشارع يقول لكل أحد: لا تستخدم المكر والخديعة والاحتيال والمخادعة للمؤمنين لتحصل شيئًا. فلا تمكر بهم، ولا تظهر لهم خلاف ما تبطن، ولا تدبر لهم ما يكون سبب سوئهم وشقائهم، أو سبب بلائهم ونزول المصيبة عليهم، أو سبب أخذ مالهم وإضافته إلى نفسك، أو غير ذلك؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ (فاطر: ٤٣).

والتناجش – على المعنى العام – هو التقرب بالخديعة والمكر والمخاتلة ليحصل أو ليوقع من أمامه فيما يريد أن يحصله هو، أو أن يوقعه في ما يكون سبب فساد حاله، أو سبب بعده وتعطيله في دنياه وآخرته.

والمؤمن لا يكون كذلك أبدًا، ولا يخطر على باله أن يمكر بأحد، أو أن يحتال على أحد، أو أن يوقع أحدًا في شيء، أو أن يستدرج أحدًا لشيء مخاتلة ومكرًا، أو غير ذلك، **وإنما ظاهره وباطنه سواء، ومعاملته في كلا الحالين لله تعالى**، والله لا ينتظر منه هذا "اللف والدوران" والمكر والخديعة، وإنما ذلك إن فعله وقع فيه هو أولاً كما قال: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ (فاطر: ٤٣).

والله تعالى عبر بالإحاقة في هذه الآية، لأنه إذا مكر المرء مكرًا لم يحق بالإنسان ولم يوقعه فيه، الله تعالى يعاقبه بما يحيق به ويوقعه فيه، وكأنه يُطبق عليه فلا يستطيع أن يخرج منه. فإن مكرت بأخيك أو أوقعته في شيء أو كذا أو كذا مما يحدث بين الناس، عقابك أشد عند الله تعالى، بأن يحيق بك هذا المكر، بأن يكون كالحلقة حولك لا تستطيع أن تخرج منه، عقابا لك على هذا الحال السيئ وذلك الخلق المرذول !

التباغض

ونستكمل حديث النبي ﷺ لنرى المعنى التالي، وهو قوله: « **وَلَا تَبَاغَضُوا**» . ويحمل **هذا** الترتيب معنى جديدا، وذلك لأن قوله صلى الله عليه وسلم: « **وَلَا تَبَاغَضُوا**» **بعد** قوله : « **لاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَنَاجَشُوا** » يفيد أن الحسد والتناجش يكون سببًا لوقوع التباغض، فلا تحاسدوا ولا تناجشوا لكي لا تتباغضوا .

وذلك لأن الله جل وعلا أمر المؤمنين بألا يفعلوا ما يكون سببًا لوقوع البغضاء والشحناء بينهم، وذلك وارد في كلام الله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ** ﴾ (المائدة: ٩١)، و ذلك يفيد أن ما يكون سببًا لوقوع البغضاء يجب تجنبه. فإن رأيت أي سبب من الأسباب التي توقع بينك وبين إخوانك البغضاء، لا بد أن تجتنب هذا السبب وإلا كنت آثمًا عاصيًا؛ لأنك تسعى فيما حرم الله وتوقع ما نهى الله عنه بينك وبين إخوانك، بل يجب عليك أن تسارع إلى رفع ذلك وإزالته، وألا تبقيه مخالفًا بذلك أمر الله تعالى.

لأن ذلك سبب فساد الدين كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: « **دَبَّ إليكم دَاءُ الأُمَمِ قَبلَكم : الحسدُ والبغضاءُ ، وَهي الْحَالِقَةُ أَمَا إِنِّي لا أَقُولُ : تَحْلِقُ الشَّعْرَ ، ولكن تَحْلِقُ الدَّينَ ، والَّذي نَفْسي بِيدِه ، لا تَـدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حتَّى تُؤمِنوا ، ولا تُؤمِنُون حتى تَحابُّوا ، أَلا أَدُلُّكم على مَا تَتَحَابُّونَ بِهِ ؟ افْشُوا السلامَ بينكم** » (٢٨)

وقد ذكر ذلك ﷺ تحذيرًا للمؤمنين، وخوفًا من أن يقع بينهم داء الأمم فيتبعون هذا الداء، فيكون ذلك الداء من الحسد والشحناء والبغضاء - حالقة الدين- سبيل إلى التباغض وإلى التدابر وإلى التقاطع وإلى ما ينبني على ذلك كله من عدوان.

والمؤمنون ليسوا في حاجة إلى ازدياد العدوان والبغضاء والقطيعة والتدابر، هم ولا حول ولا قوة إلا بالله، متدابرون متقاطعون، وأحوالهم شتى، وقلوبهم شتى، وليسوا في حاجة إلى مثل هذه الأحوال، لا إنشاء ولا استمرارًا !

وإنما هم في حال يود كل أحد فيه إن كان مؤمنًا صادقًا أن يرتفع ذلك البلاء، وما يرتفع هذا البلاء إلا بأن يعودوا إلى تلك المحبة التي بيّنها في نفس الحديث صلى الله عليه وسلم: « **أولا أنبئكم بشيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم** » فيكون السلام هو الفاشي بين المؤمنين.

---

(٢٨) رواه الترمذي (٢٥١٠) وقال: حديث حسن صحيح ، ولفظه (عَنْ الزبير بن العوام - رضي الله عنه - : أنَّ رسولَ اللَّه -صلى الله عليه وسلم- قال : «دَبَّ إليكم دَاءُ الأُمَمِ قَبلَكم : الحسدُ والبغضاءُ ، وَهي الْحَالِقَةُ أَمَا إِنِّي لا أَقُولُ : تَحْلِقُ الشَّعْرَ ، ولكن تَحْلِقُ الدِّينَ ، والَّذي نَفْسي بِيدِه ، لا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حتَّى تؤمِنوا ، ولا تُؤمِنُون حتى تَحابُّوا ، أَلا أَدُلُّكم على مَا تَتَحَابُّونَ بِهِ ؟ افْشُوا السلامَ بينَكم).

وليس السلام مقتصرًا على قول: السلام عليكم، وإنما المعنى التالي لقول: السلام عليكم، أي أنت سالم مني لا يصلك مني شيء يضايقك ويعكر سلامتك وصفوك، وإنما يصل مني إليك كل سلامة، وكل محبة، وكل ما تود أن تكون به محافظًا على نفسك وعلى دينك. فلا يصل إليك مني لا بغضاء ولا شحناء ولا غيبة ولا نميمة، فأنت سالم من كل أخلاق سيئة يمكن أن تصدر بين الناس، أنت سالم مني طالما قد ألقيت عليك ذلك السلام (٢٩).

وهو الذي ينبغي أن يفشو بين المؤمنين، بأن يكون السلام دليلاً على تلك السلامة التي تود أن تخبر أخاك بها عن نفسك، والتي تقوم بها في واقع حالك إليه، أنك لا تحمل له إلا سلامة الصدر ومحبة الخير، وسلامة القلب من كل إثم، وعطب وسوء.

فلا تقول له: السلام عليك، وأنت تضحك عليه، وتحمل له في نفسك الغدر والخسة وهذه الأخلاق الوضيعة، التي ينبغي على المؤمنين أن يتنزهوا عنها يريدون بذلك أن يسلموا عند الله تعالى؛ لأنه إذا لم يكونوا كذلك لا ينفعون في الآخرة، كما ذكر الله: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (الشعراء: ٨٧، ٨٨)، **ولا تخرج هذه الأخلاق السليمة إلا من ذلك القلب السليم، وهذا القلب السليم هو النافع عند الله**. ومهما جادلت مع نفسك، أن قلبك سليم وأنت لم تكن على حال سلامة القلب لإخوانك، فلست بسليم، وأنت تعلم ذلك من نفسك أيها المسكين!

---

(٢٩) للاستزادة من معاني السلام، يرجى الاطلاع على سلسلة « الفتوحات الإلهية – شرح الأسماء الحسنى للذات العلية » – اسم الله تعالى: السلام.

والأمر الثاني من هذه المعاني أن البغضاء إذا وقعت لا بد أن ترفعها، فإن وقعت أسباب التباغض ونزغ الشيطان بينهم، وقام منهم من قام، بما يخالف الشرع فوقعت البغضاء، حذرهم الشارع من التمادي في ذلك، بل يجاهد نفسه على رفع البغضاء وإزالتها، وأن يعود قلبه سليمًا لإخوانه، محبًا لهم، يحب لهم الخير كما يحبه لنفسه، **لا يحب أن يراهم في السوء كما لا يحب لنفسه أن يراها في السوء**، وأن يراها في الأحوال المنكرة والأخلاق المذمومة أو في الدنيا السيئة.

والمرء إن تمنى لإخوانه الخير، وسعى لتحقيق ذلك بالقول والعمل، تعرض بذلك لرحمة الله تعالى، كما جاء في قول الرسول صلى الله عليه وسلم في البر والإحسان: « **والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه** » (٣٠)، وأنت مطالب بهذا الحال، وانظر إلى نفسك، أن تكون في عون العبد مهما كان وبأقل ما يكون، فكل أحد يمكن أن يكون في عون إخوانه، ولو بالكلمة الصادقة، ولو بكف أذاه عنهم، ولو بالسلام، ولو بطلاقة الوجه، ولو بالسؤال إذا غابوا، كل ذلك يمكن لكل أحد أن يأتيه، ولا يفرط فيه، ينتظر عون الله تعالى بذلك.

---

(٣٠) رواه مسلم (٧٠٢٨) ولفظه: (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ »).

ولا تنتظر عون الله بالأخلاق السيئة المرذولة، وإنما تنتظر عون الله تعالى بأن تكون على الأحوال الحسنة مع إخوانك، وأنت محتاج إلي عون الله تعالى ليلك ونهارك؛ في أحوالك، وأهلك، وولدك، ونفسك، وعلمك، وعملك، وصلاتك، وعبادتك، وكل ما أنت فيه تحتاج فيه إلى ربك. وهذا العون لا يكون إلا بأن تكون في عون إخوانك، **وعون إخوانك لا يحتاج إلا سلامة الصدر منك**، وأن تبدي لهم السلام الذي ذكر النبي والذي أشارت إليه الآيات الكريمات، كما ذكرنا.

التدابر

ثم قال صلى الله عليه وسلم: «**لَا تَدَابَرُوا** »، والتدابر أن يعطي كل أحد منهم ظهره لأخيه، دليلاً على القطيعة ودليلاً على عدم المحبة، وإظهارًا أنه ليس سالمًا منه، وأنه ينتظر منه أن يفعل فيه كذا وكذا، وينتظر فيه أن يأتيه "اليوم الأسود" الذي يراه فيه وقد فعل فيه الله تعالى كذا وكذا، ويدعو عليه بأن يقع في كذا وكذا!

كلا، ولكن: **ارفعوا أسباب البغضاء، ارفعوا أسباب الشحناء، ارفعوا أسباب التدابر**، ثم بعد ذلك: « **وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ وَلاَ يَحْقِرُهُ** ». ومعنى « المسلم أخو المسلم » كما ذكره العلماء: أن المسلم من شأنه أن يوصل النفع لإخوانه، لا أن يحمل الضرر إليهم، لا بقول ولا فعل، لا في الظاهر ولا في الباطن، لا في الحاضر ولا في الغائب، ولا يحمل لهم ما يضايقهم ويؤذيهم، حتى وصل الحال بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى النهي عن التناجي: « **لَا يَتَنَاجَى اثْنَان دُونَ**

الثَّالِث، فَإِنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُه» [٣١] **ذلك** يحزن المؤمن، وأنت منهي عن أن تحزنه، بأن تتناجى مع أخيك لأمر يخصك، إذا كان ذلك يحزن أخاك، قال لك صلى الله عليه وسلم، لا تفعل ذلك: (فإن ذلك يحزنه) ، فما **بالك** ببقية الأحوال التي نهى عنها !

انظر إلى رقة النبي صلى الله عليه وسلم في معاملة المسلمين: (**فإن ذلك يحزنه**) لا تحزنه، **أنت لست موجوداً لكي تحزن أخاك وتضايقه**، حتى فيما يخصك من كلام، لا تتناجى أنت وهو دون هذا الثالث إلا أن يكون مسامحًا، وأن الأمر لا يخصه في شيء، **لأن الأخ إنما سمي كذلك ليوصل النفع وليمنع الضرر**، وكذلك ليمنع كل طريق تؤدي إلى فساد هذه الأخوة، أو تؤدي إلى وقوع البغضاء والشحناء بدلاً من المودة والرحمة التي ذكرها الله جل وعلا بين المؤمنين، والتي أرادها لهم حتى يعودوا إلى سابق **عهدهم، من** العلو والرفعة، ومن تلك المكانة التي تبوءوها بهذه المحبة فيما بينهم، **لذلك ذكرهم** الله تعالى بالرضا، فقال جل وعلا: ﴿ **وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ** ﴾ (التوبة: ٩٩).

لذلك النبي ﷺ يقول: «**أفضل الأعمال سرورٌ تدخله على مؤمن**» [٣٢] فإن كان أفضل الأعمال إدخال السرور على أخيك، **فإن لم تستطع ذلك فلا تحُزنه**، لذلك قال السلف:

---

(٣١) أخرجه البخاري (٥٩٣٢) ، ومسلم (٢١٨٤).

(٣٢) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٤/٨)، وقال فيه مسكين بن سراج وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع الصغير (١٧٦)، وقال في صحيح الترغيب (٢٦٢٣): حسن لغيره.

(حق المسلم على المسلم ثلاث؛ إذا لم تنفعه لا تضره، وإذا لم تفرحه لا تغمه، وإذا لم تمدحه فلا تذمه) .

واحفظ هذه الثلاثة لعلها تكون مدخلاً **لتعلم كيف تكون علاقتك بإخوانك؛ ألا تضرهم، وألا تغمهم، وألا تذمهم**. فإذا لم تمدحهم وضاق على نفسك الشحيحة أن يخرج منها مدح لإخوانك، فلا يخرج منك إلا التقليل والاستصغار له؛ دعك منهم، لا تذمهم، وإذا لم تستطع أن تنفعهم فلا تضرهم.

وقد بين النبي ﷺ ذلك في حديثه، قال: « **عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ** ». **قِيلَ أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِدْ قَالَ** « **يَعْتَمِلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ** ». **قَالَ قِيلَ أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ قَالَ** « **يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ** ». **قَالَ قِيلَ لَهُ أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ قَالَ** « **يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ أَوِ الْخَيْرِ** » **قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ قَالَ** « **يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ** » [٣٣] فإن ذلك صدقة من نفسه على نفسه، بأن يكف لسانه وقلبه عن الغيبة وسوء الظن والنميمة والتطاول، وأن يكون منكسرًا لربه متواضعًا له، وأن يكون مقبلًا على شأنه يتوب إلى ربه، ويصحح عمله، يدعو إلى المولى على بصيرة بما يستطيع.

---

(٣٣) رواه البخاري (١٣٧٦) ، ومسلم (١٠٠٨) ولفظه: (عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ « عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ ». قِيلَ أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِدْ قَالَ « يَعْتَمِلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ ». قَالَ قِيلَ أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ قَالَ « يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ ». قَالَ قِيلَ لَهُ أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ قَالَ « يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ أَوِ الْخَيْرِ ». قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ قَالَ « يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ »).

فمن ليس عنده ما يتصدق به، و كذلك ليس عنده قوة يستطيع أن يساعد بها الأعمى أن يعبر الطريق، ولا أن يبين عن الأرطن كلامه، ولا أن يحمل بشدة ساعديه، بأن يحمل له متاعه على حماره أو على عربته أو سيارته، ولا أن يمشي بشدة ساقيه مع الملهوف، ولا يستطيع أن يقول كلمة خير، قال: كف عنه شرك، فإنه صدقة منك عليه. لا تحزنه، لا تضايقه، لا تؤلمه، لا تؤذيه !

لذلك قال ﷺ بعدها: « **لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يسلمه**» وفي رواية، «**ولا يكذبه** » وفي الرواية الأخرى «**ولا يحقره** ». **فكأن النبي صلى الله عليه وسلم قد فصل أصول الإيذاء، وأصول الضرر الذي قد تقع من أخ لأخيه ، حتى يعلمها المرء، وحتى يعلم منها بقية الفروع**، فلا ينبغي له إلا أن يوصل إليه النفع أو أن يكف عنه الضرر، أما غير ذلك فهو قد خالف أمر النبي، وقد أسرع بنفسه إلى البغضاء وإلى التدابر وإلى الشحناء وإلى سواد القلب، وأنه لن يعبر هذه المرحلة من مراحل الإساءة إلى مراحل الإحسان الذي هو البر .

الخذلان

وقوله ﷺ: « **ولا يخذله** » من المهات التي ينبغي أن يتعلمها المرء في علاقته بإخوانه من المؤمنين، فلا خذلان يمكن أن يقع في قوله أو فعله، في ظاهره أو باطنه، أو في أعماله وأقواله، بأن يراه في الموقف الذي يود أن ينتصر له فيه فيخذله فيه، بل يسارع إلى خذلانه، وكأنه قد انتصر في معركة عين جالوت مثلاً على إخوانه، وقد أوقع بهم وأساء إليهم !

لا يجوز له أن يخذل أخاه، فإذا كان في موقف، مما يجب أن ينصره فيه، وجب عليه أن ينصره فيه، بأن تقول فيه كلمة حسنة، أو أن ترفع عنه بلاء. لا أن تتركه ليتعرض للسوء، أو للكلام السيئ، أو للنميمة، أو للغيبة، أو للتنقص، وما فعلت من فعل من مثل ذلك إلا وسيفعل الله تعالى بك مثله!

لذلك يقول الحديث ذلك، يقول النبي ﷺ: « **مَا مِنِ امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ إِلاَّ خَذَلَهُ اللهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ وَمَا مِنِ امْرِئٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إِلاَّ نَصَرَهُ اللهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ** » (٣٤) افعل ما شئت، سوف تأخذ مثله، ولكن من الله تعالى القوي القادر ! افعل ما شئت لإخوانك، إن احتاجوك لنصرتهم، بكلمة طيبة، في إصلاح، أو توفيق، بكلمة طيبة في خطبة، أو زواج، بكلمة في مواساة، أو في فقر، أو مسكنة، بكلمة طيبة في شيء وقع، أو سيقع، فسوف يعود ذلك عليك، ولكن من الله تعالى.

إما أن تنصره في موطن تنتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه، فإن المولى سبحانه وتعالى ينصرك ويبعث لك من ينصرك، أو تخذله، فيبعث لك من يخذلك،

---

(٣٤) أخرجه أحمد (١٦٣٦٨) وأبو داود (٤٨٨٦) وتكلم أبو داود في سنده ، ولفظه (عن إِسْمَاعِيل بْن بَشِيرٍ قال: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ وَأَبَا طَلْحَةَ بْنَ سَهْلٍ الأَنْصَارِيَّ يَقُولاَنِ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « مَا مِنِ امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ إِلاَّ خَذَلَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ وَمَا مِنِ امْرِئٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إِلاَّ نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ »).

ويبعث لك من يقلل من قيمتك، وينتقص من عرضك، ولا يبالي بحرمتك، ولا يبالي بغيبتك، ونميمتك، ولا يبالي بشيء !

لذلك ينبغي للمرء أن يتعلم كيف يكون كل همه أن ينصر أخاه، يود بذلك نصر الله تعالى، ويود بذلك الإحسان له، وترك الإساءة له.

ويضرب السلف المثل في ذلك الأمر، بأن تكون كما لو كان أخوك شاهدًا من وراء حجاب يستمع لقولك، ماذا ستقول حينما تنتهك حرمته وينتقص عرضه؟

وكذلك في الغيبة قال النبي ﷺ: « **ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ** ». **قِيلَ أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ:** « **إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ** »(٣٥)، فليس لك أن تذكره في غيبته بما يكره وإن كان فيه، أما إن قلت ما ليس فيه، فستنتظر عاقبة ذلك في الدنيا والآخرة ! وننبه على ذلك ليتعلم المؤمنون كيف يحفظون ألسنتهم وقلوبهم، ليست ألسنتهم فقط، لأن المرء في الغيبة قد يحفظ لسانه، ولكنه قد يغتاب أخاه! كيف؟، كأن يقول مثلاً وقد جاءت سيرة فلان: الحمد لله الذي عافانا ! أو يقول: لا، لن أتكلم عنه، الله مطلع عليه، وشاهد عليه، ويراه وهو يفعل ما يفعل ! احذر فهذه غيبة أيها المؤمن !

---

(٣٥) أخرجه مسلم (٢٥٨٩)، ولفظه (عَنِ الْعَلاَءِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْغِيبَةُ قَالَ « ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ ». قِيلَ أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: « إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ »).

ويرتبط بهذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم: «وَلَا يُسْلِمُه» ومعناه ألا يسلمه لأحد، ولا يتركه للعطب، كهذا الذي يرى الأعمى يوشك أن يقع في بئر أو أن تحدث له مصيبة، فيقول في نفسه: دعه يموت، دعه يحدث له ما يحدث، هذا شيء جميل، ويستروحه في نفسه، وتميل إلى ذلك، وينشرح صدره وقلبه أن يرى إخوانه الذين يبغضهم على هذا الحال وكأنهم ليسوا إخوانه، وكأنه لا يظن أن تلك البغضاء ستصيبه قبل أن تصيبهم، وأن نقمة الله نازلة عليه قبل أن تنزل بهم، وأن ما هو فيه لن يرفع عنه ذلك البلاء أو أن يغير قضاء الله تعالى فيهم!

الكذب

ثم قال ﷺ بعد ذلك: « ولا يكذبه » لأنه ليس هناك أقبح من الكذب، وإن لم يكذبه، قد ينتقل المرء إلى التورية ويوري عليه، ويقول له قولاً ويقصد آخر، ويقول له قولاً في وجهه وقولاً في ظهره، ويتكلم كلامًا يظهر به المحبة ويبطن به الشقاق والنفاق، وغير ذلك مما يحدث من المؤمنين لبعضهم بعضًا!

النبي صلى الله عليه وسلم يوجه هذا الحديث لأصحابه، **وما كانوا كذبة، ولكنه هو المرشد والمعلم الذي سيتعلم منه بعد ذلك أهل الإيمان ما وصل إليهم من شرعه ودينه وخلقه وأدبه ومحافظته على هؤلاء المؤمنين**، كيفما كانوا وأينما كانوا إلى أن تقوم الساعة، فدلهم على ما يحفظهم يوم أن بلغهم ذلك صلى الله عليه وآله وسلم.

واعلم أن هذه الكلمة ما قيلت إلا لأنها ستقع، وهاهي تقع **وكأنها ليست شيئًا مما يعاقب الله به، وليست كبيرة من الكبائر، ويتعلل المرء فيها بتلك العلل التي لن تغني عنه**

من الله شيئًا، يوم يعرض على الله فيسأله عن خذلانه وظلمه، وعن كذبه واحتقاره لإخوانه !

الاحتقار

ثم قال: «**ولا يحقره**» ويحقره معناها أنه يقلل من قيمته، ويستهزئ بقدره، ويظهر قلته وضعفه، أو يظهر ضعف عقله وقلة مكانته، **وهذا من معاني الكبر الذي نهى الله عنه، وأعد لأصحابه العذاب الأشد**؛ لأن المرء لا يحقر غيره إلا لأنه يرى نفسه أكثر من ذلك، ويرى له عليه فضلاً، أو يرى لنفسه عليه مقامًا وعلوًا، أو يرى لنفسه عليه شيئًا، أو دعك من ذلك هو يرى نفسه أعلى من ذلك، أكبر من ذلك، أعلم من ذلك، إلى غير تلك الأسباب التي تكون وراء الكبر ورؤية النفس والعجب الذي يؤدي إلى احتقار إخوانه، والتقليل من شأنهم، والتقليل من قيمتهم، سواء فيما يتعلق بدينهم، أو دنياهم، في كلامهم، في فهمهم، في عقلهم، في تصرفاتهم، يقلل من كل ذلك.

وكأنه ينازع الله تعالى فيما لا يكون إلا من صفاته، مما لا يجوز للبشر أن يتصفوا به، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم، فيما يرويه عن ربه: « **الكبر ردائي، والعز إزاري ، فمن نازعني فيهما عذبته** »[٣٦] فإذا به الفقير المسكين يتصف بهذه الصفة، ويبين له شيطانه أنه هو من هو، وإذا كلمه أحد يقول له: ألا تدري من تكلم؟ أنت تكلم فلان الفلاني، ويرى نفسه كأنه يمكن أن يكون شيئًا، وكأنه ليس مخلوقًا يدخل دورة المياه،

---

(٣٦) رواه مسلم (٢٦٢٠) ، ولفظه (عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ قَالاَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– « الْعِزُّ إِزَارُهُ وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ ».

وليس مخلوقًا فقيرًا، إن أصيب بشيء رأيته باكيًا جزعًا، يشكو ويبكي، وتتعالى صيحاته، وليس ذلك كذلك وإنما نهايته أن يحمل على الأعناق إلى الله تعالى وحيدًا فريدًا: **أيها المتكبر قد جئت ووضعت في التراب، وديس عليك بالأقدام والأحذية، وأنت ترى نفسك فوق غيرك! أيها المتكبر، العتل، الجواظ، الجافي، الغليظ !**

وذلك لأن « الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ » (٣٧)، وبطر الحق **أن يعلم الحق ويدفعه، ويرى لنفسه حقًا آخر هو الذي يميزه بعقله وفهمه،** حتى يُسَيِّره على الخلق، ويرد الحق ممن يظن أنه لا ينبغي أن يسمع لقوله، أو أن يتكلم عنده، وغمط الناس، يعني احتقارهم والتقليل من شأنهم، أو غير ذلك مما يفعله هؤلاء الأشخاص اليوم !

هذه الأيام إذن فتحت للجميع للتخلص من هذه الآفة الحقيرة، وهذا مهم للحجيج حتى يتم بر حجهم بتوحيد الله تعالى وأن **يسلموا وجوههم لله، وأن يكونوا متواضعين لله تعالى،** وهو المعنى المهم الذي أشارت إليه الآية الكريم: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤]. فهذه الآية لم تذكر عبثًا في سياق آيات الحج، ولأن الحج لا يكون مبرورًا إلا بتوحيد الرب جل جلاله وبإسلام الوجه لله وبتحقيق صفات المخبتين لله تعالى.

---

(٣٧) رواه مسلم (٩١)، ولفظه (عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: « لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ ». قَالَ رَجُلٌ إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ « إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ ».

وذلك لأن قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ يعني: وبشر هؤلاء المتواضعين الذين تركوا التكبر في لباسهم، وهيئتهم، وأكلهم وشربهم، وكان ذلك عادتهم لأن عادة أهل الإيمان في كل زمان ومكان أن يكونوا على هذه الهيئة من التواضع، لتنير لأهل الإيمان طريقهم في بر الحاج، ولترشدهم لسيرة هؤلاء المكرمين؛ لتكون قدوتهم في أن يجاهدوا أنفسهم عليها من يومهم هذا، إلى أيامهم التي تأتي. **وأما الكبر والتجبر والتكبر فمن عادات الكفرة المشركين أو من عادات الجبارين القساة**، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥] .

ومن الملاحظ أن الآية لم تقل: وبشر المخبتين بكذا، بماذا يبشرهم؟ **قال: فكر فيها ما شئت فإنها بشارة عظيمة لا يتخيلها عقلك، ولا يصل إليها وهمك، ولا يمكن أن تدركها بتفكيرك، وإنما هي أعظم من ذلك كله:** ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ بأي شيء بكل شيء يمكن أن تتخيله وبأشياء أخرى لا يمكن أن تتخيلها عند الله تعالى من جمال الثواب ومن حسن ما يسدي إليهم ربهم من المعروف يكافئهم على ما قدموا من صالحات ويكرمهم بما تواضعوا لله تعالى وأخبتوا.

ثم قال صلى الله عليه وسلم: « التَّقْوَى هَا هُنَا » ولا يعلم أحد التقوى؛ لأن التقوى في القلب، **ولا يظن أحد بنفسه أنه تقي، وأن ما هو فيه من تقوى ينبغي أن يكون سببًا لتعظيمه عند الخلق**، كلا. **لأن التقوى لا يدري بأمرها إلا الذي وضعها في قلب أصحابها سبحانه وتعالى**، ومن ثم كيف يمكن لامرئ أن يدعي لنفسه فضلاً، أو أن يدعي

لنفسه درجة ومنزلة، والمنازل عند الله تعالى تتفاضل بالتقوى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجرات: ١٣). إن كنت تنتظر أن تكون تقيًا، فالله أعلم بتقواك، **وإن كنت تنتظر أن تأخذ على هذه التقوى التي أنت فيها درجة عند الناس فذلك ترك للإخلاص؛** لأن المرء ينبغي إن يعمل على تحصيل الدرجة عند الله، فإن حصلها عند الناس كانت وبالاً عليه في الدنيا والآخرة، كما ذكر المولى سبحانه وتعالى في الحديث القدسي: « **اذهبوا إلى من كنتم تراءون في الدنيا** »[٣٨] اذهبوا إلى من كنتم تطلبون عندهم الدرجة والعلو، ليعطوكم هذه الدرجة وهذه المنزلة، هل تجدون عندهم من شيء؟

إن الذي يتكبر ويتعالى ويرى نفسه شيئًا، ينبغي أن يعلم أن التقوى في القلب، ولا يعلمها أحد، ولا يطلع على حقيقتها إلا هو سبحانه وتعالى، وأنت إذا حاولت أن تعتبر نفسك تقيًا فذلك من أسوأ الأبواب، ومن مداخل الشيطان، أن تقول عن نفسك: تقيًا. **لو كنت تقيًا، ما احتقرت أحد، ولو كنت تقيًا لكنت خفيًا، لو كنت تقيًا لكنت متواضعًا، لو كنت تقيًا لكنت برًا بربك سبحانه وتعالى،** فأين التقوى إذا؟ فلا تقوى في الظاهر تدل على تقوى في الباطن، ولا حقيقة التقوى موجودة.

---

(٣٨) أخرجه أحمد (٤٢٨/٥ ، رقم ٢٣٦٨٠) . قال المنذري (٣٤/١) : إسناده جيد . وقال الهيثمي (١٠٢/١) : رجاله رجال الصحيح .، ولفظه (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر " قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال " الرياء " يقول الله عز وجل يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء).

كيف يدعي المرء ذلك، وهو يعلم من نفسه ما لو اطلع عليه الناس لاحتقروه وازدروه؟

فهو يعلم من نفسه ضعف الدين واليقين، ويعلم من قلبه امتلاءه بالشهوات وحب الدنيا والصور والمناظر، ويعلم من نفسه التقصير والتفريط، ويعلم من نفسه كل ذلك، ومن الذي لا يدري من نفسه هذه المصائب وتلك الآفات، حتى يكون العوض عنها أن يرى نفسه تقيًا؟ كيف يدل ما في نفسك على أنه لا تقوى ولا شيء، وإنما يظهر عليك خلافها، ثم تدعي التقوى وتتعالى على غيرك بها وتحقره وتزدريه ؟ لذلك قال: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجرات: ١٣)، فالكرامة بالتقوى، وربما هذا الذي تحقره، أكرم منك عند الله تعالى.

وانظر ماذا قال النبي ﷺ، يبين هذا الحال: « **مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟ قَالُوا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ قَالَ ثُمَّ سَكَتَ فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا قَالُوا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَّعَ وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يُسْتَمَعَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا** » (٣٩)

(٣٩) رواه مسلم (٥٠٩١) ، ولفظه (عَنْ سَهْلٍ قَالَ مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟ قَالُوا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ قَالَ ثُمَّ سَكَتَ فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا قَالُوا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَّعَ وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يُسْتَمَعَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا).

ثم قال ﷺ: « بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم »، يعني **يكفيه شراً يحمله على أعناقه، ويأتي به ربه يوم القيامة، أن يحقر أخاه المسلم**، ويقلل من قيمته، ويضعف من شأنه، وينظر إليه نظرة الدون، ويتكلم عليه كلامًا يظهر أنه لا يبالي به !

« **بحسب امرئ من الشر** » أن يفعل ذلك ! المرء المؤمن يكويه هذا الكلام، وينغص عليه معيشته، ويدفعه للمبادرة بالخروج من هذه المظالم التي ذكر الله تبارك وتعالى في الغيبة والنميمة، وفي الاحتقار والظلم، وفي الحسد والبغضاء، وفي التقاطع والشحناء. إن المرء عندما يعلم أنه يحمل من الشر ما لا قبل له به، وأنه سوف يأتي ربه، فأين يذهب بهذا الشر العظيم الذي يحمله على كاهله، والذي يحمله في صدره، ويحمله على منكبيه؟

كل المسلم على المسلم حرام

لذلك قال ﷺفي نهاية الحديث: «كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه»، وهي التي لا بد أن يتعلمها المسلمون اليوم، **كل شيء من أخيه عليه حرام، ليس له شيء من أخيه مباح**، فإن كان لك من أخيك شيء، مما أباحه لك الشرع أو أباحه لك أخوك، فهذا حقك فقط الذي قد أباحه لك، لا تتعداه ولا يجوز لك ذلك.

والمولى سبحانه وتعالى قال: ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ (آل عمران: ١٠٣)، فلا تفسخوا هذا التآلف مرة أخرى، ولا تقطعوا بين

هذه القلوب ، لتكونوا أعداء ! كانوا أعداء فجعلهم سبحانه وتعالى بنعمته إخوانًا، وألف بين قلوبهم، إذا بهم يأتون ليرجعوا إلى العداوة مرة أخرى !

وليس المقصود في الحديث «بعرضه» انتهاك عرضه، أن يعتدي رجل على امرأة وينتهك عرضها، وإنما المقصود هو تلك الهيئة التي لا يجوز لك أن تتعدى فيها إخوانك. فإنك إن شتمته فقد انتهكت عرضه، وإن سببته فقد انتهكت عرضه، وإن لطمته فقد انتهكت عرضه، وكذلك أن تغتابه، أو أن تسخر منه، أو أن تتطاول عليه، أو أن توقع العداوة بينه وبين غيره بكلام لم يقله، كل ذلك قد انتهكت عرضه فيه.

من الذي أباحك لك ذلك؟ كل ذلك حرام، وكل هذه الحقوق إذا لم تحفظها لأخيك، فما زلنا في بند الإساءة، لم ننتقل إلى مقام الإحسان الذي ذكر النبي ﷺ والذي ذكر الله سبحانه وتعالى.

ونهاية باب الإساءة الذي ينبغي أن نتعداه لنصل إلى باب الإحسان، قولنا الذي ذكرناه في أول الكلام: « **حق أخيك عليك ثلاث؛ إذا لم تنفعه فلا تضره، وإذا لم تفرحه فلا تغمه، وإذا لم تمدحه فلا تذمه** » ، أن تكف لسانك وقلبك وعينك وسمعك عنه، إذا لم تستطع أن تقدم له شيئًا من البر، **فبر نفسك بكف أذاك عن إخوانك، واعلم أنك ستحمل من الشر ما لا يمكن ولا قبل لك به عند الله تبارك وتعالى**.

وهذا يستدعي منك المسارعة إلى الخروج من ذلك، فقد قال النبيُّ ﷺ: « **من كان له عند أخيه مظلمة، فليتحلله اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم** »[٤٠] وانظر إلى تعبير النبي صلى الله عليه وسلم، **فليتحلله منه اليوم، لا يؤخر ذلك إلى الغد، وإنما فليبادر بأن يتحلله من ذلك**، فإنه إذا لم يتحلله منه قد حمل هذا الإثم العظيم، ووقف هذا الموقف المتقهقر في سيره إلى الله، بل لن يستطيع السير إلى الله تعالى، وقد علم الشيطان مداخله وطرقه التي يستطيع أن يفسد منها قلبه، والتي عشش فيها في قلبه، فلا يريد منه أكثر من ذلك!

الغضب

والوصية التالية للنبي ﷺ هي ترك الغضب، فقد قال للصحابي الذي قال له أوصني: «**لا تغضب**»[٤١] لأن الغضب جماع الشر كلِّه، وترك الغضب جماع الخير كله، ولَّما قال السائل للنبي ﷺ: دلني على عمل يدخلني الجنة. قال: «**لا تغضب ولك الجنة**»[٤٢] لأن ترك الغضب يعلم المرء كيف يتحكم في نفسه، وكيف يقتدي بالنبي ﷺ،

(٤٠) رواه البخاري (٢٣١٧)، ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- : «مَنْ كانت عنده مظلِمَة لأخيه، مِنْ عِرضِهِ أو شيء منه، فلْيَتَحلَّلْهُ منه اليومَ، من قبلِ أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح؛ أُخذَ منه بقدر مَظلِمتِهِ، وإن لم يكن له حسنات أُخِذَ من سيئات صاحبه، فَحمِلَ عليه»).

(٤١) رواه البخاري (٦١١٦) كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب.

(٤٢) أورده المنذري في الترغيب والترهيب (٣/٣٨٤)، وقال: روي بإسنادين أحدهما صحيح. والهيثمي في مجمع الزوائد (٨/٧٣)، وقال: أحد إسناديه رجاله ثقات.

وكيف يحسن إلى المسيء إليه، وكيف يتمنى له الخير، وكيف يزيل أسباب العداوة والشقاق والبغضاء والتدابر بين المؤمنين.

وكذلك لأن الغضب من أقوى الصفات التي تحمل المرء على الأخلاق الرديئة، **لأن الغضب يحمل على الانتقام، والانتقام يحمل على التطاول على شرع الله تعالى والوقوع في المعصية**، يرد السيئة بالسيئة وعدم تحمل الأذى، وعدم كف الأذى، بل يسارع إلى الغضب لنفسه، فيقابل الشتم بالشتم، والشتم بالضرب، والشقاق والتباغض والتقاطع والتدابر، وامتلاء القلوب بالشحناء والبغضاء وسوء الظن، وانتظار الانتقام والتشفي، وتمنى وقوع المصائب بهم والآفات والبلايا التي تصدر عن هذه القلوب السيئة التي ما زالت ممتلئة بهذه الأخلاق الرديئة، ويقع بعد ذلك كل ما يحذر منه النبي ﷺ من الأخلاق السيئة بين المؤمنين التي تكون سبب حلق الدين كما قال النبي ﷺ في الشحناء: «**هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين**»[٤٣].

وكلمة «لا تغضب» لها معنيان، المعنى الأول: **أن تتحلى بالأخلاق التي أمر بها الشرع حتى إذا جاء الغضب وجد فيك الأخلاق الحميدة الحسنة التي تمنعك من الغضب**، فلا تغضب يعني: تَحَلَّ بالأخلاق الحسنة الحميدة من الجود والكرم والحلم والسخاء، وكف الأذى وكظم الغيظ، واحتمال الأذى، والتواضع ولين الجانب، فإذا ما جاءك الغضب وجد هذه الحال الحسنة فلا تغضب حينئذ، فإذا قلنا: لماذا يقع المرء في

(٤٣) أورده المنذري في الترغيب والترهيب (٣/٣٦٧)، وقال: إسناده جيد. والهيثمي في مجمع الزوائد (٨/٣٣)، وقال: إسناده جيد.

الغضب وما يترتب عليه من عمل السوء؟ الجواب: لأنه لم يتخلق بالأخلاق الحسنة من أخلاق البر التي ينبغي أن يكون عليها، ولم يصل إلى الحال الحسنة التي يلتحق المؤمن بها بمحبة النبي ﷺ والقرب منه يوم القيامة عند الله تعالى.

والمعنى الثاني في قوله: «**لا تغضب**» أن المرء لا بد له أن يغضب وأن يقع منه الغضب، قال: نعم، ولكن لا تُحَقِّق هذا الغضب، يعني لا تعمل بمقتضى هذا الغضب، **يعني إذا غضبت لا تشتم، إذا غضبت لا تضرب، إذا غضبت لا تخرج عن حدود الشرع في هذا الغضب لأن الشرع سيحاسبك عليها**، لا تقول: كنت غضبان فعلت كذا وكذا، يقول له الشرع: نهيتك عن الغضب فسأعاقبك عليه، قال: كنت غضبان فطلقت امرأتي. قالوا: وقع الطلاق، لأن الطلاق لا يقع إلا في الغضب، يقول: كنت غضبان فضربته، كنت غضبان فشتمته، يقول له: ستعاقب عليه، لأن الشرع قد نهاك عن الغضب فخالفت هذا النهي، ووقعت فيه، فلا بد وأن تحاسب عليه.

وفي هذا المعنى جاءت الآيات في موسى عليه السلام لما وقع له ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤] والمعنى في قوله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ كأن الغضب هو الآمر الناهي له في أن يفعل وألَّا يفعل، وهو المعنى المتحقق فينا لأن الغضب كالشيطان، وهو جمرة كما يقول: انظر إلى حمرة وجهه وانتفاخ أوداجه، كأن الشيطان هو الذي يأمره ويحمله على ذلك يقول لك: اشتم.. اضرب....لا تسكت، قم له، فكأن الغضب هو الذي يأمره وينهاه بالأخلاق السيئة كافة التي نهاه الشرع

عنها، فيجب حينئذ أن يقف عند حدود الشرع، وألا يحقق ما يترتب على هذا الغضب، وإنما يسكن هذا الغضب بالأسباب التي أمر بها النبي ﷺ.

ومن ذلك أمر النبي ﷺ لهذا الرجل الغضبان فقال: « **أنا أعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما هو فيه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم** »[٤٤] كما أمر النبيُّ ﷺ الغضبانَ إن كان قائمًا أن يجلس، وإن كان جالسًا أن يضجع، حتى لا يكون ذلك كله سببًا للوقوع في إثم الغضب، فإن القاعد أقرب إلى ترك الانتقام من الواقف، وإن النائم والمضجع أقرب إلى ترك هذه الأسباب من القاعد.

سوء الظن

وصفة الغضب إذا أهملها المرء أوصلت إلى الصفة الأخرى السيئة التي ينبني عليها الوقوع في أعراض الناس، والتي ينبني عليها عدم تحمل الأذى، وعدم كف الأذى، **وهي سوء الظن بهم.**

فسوء الظن هو الذي يحمله على أن يتكلم على غيره وأن يشتمه وأن يقول: هو كذا ويفعل كذا، وأنا أعرف قصده، وكان قصده كذا، وكان قصده سيئًا، وهو لم يفعل في كذا وكذا، وهو قد أساء في كذا وكذا، أنت لا تعرف هذه الأخلاق، أنا أعرفهم، وما يفعلون، وأعرف حقيقتهم من كذا وكذا!

(٤٤) رواه البخاري (٦١١٥)، ومسلم (٢٦١٠).

انظر ماذا قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢] وقد قال عنه النبي ﷺ: «إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث»[٤٥]، أكذبُ شيءٍ أن تظن بأخيك سوءًا، **فلولا سوء الظن الذي ملأ قلبه على أخيه ما كان هذا التصرّف**، وقد نهى النبي عن إساءة الظن، بل أمره أن يحمل أفعاله وأقواله على أحسن محاملها، لا ينبغي أن يقول لك: لم أفعل. فتقول له: لا. قد فعلت، يقول له: لم أكن أقصد. فيرد عليه: لا. أنت كان قصدك كذا وكذا. أنت قصدك سيء وأنا أعرفك!

فالمؤمن يتلمس المعاذير لأخوانه، والمنافق هو الذي يسيء الظن بإخوانه، فلا يحمل أقوالهم وأفعالهم على حسن الظن بهم، وعلى المحامل الحسنة كما أمر وفعل النبي ﷺ ولكن يسيء بهم الظن، ويتطلب عثراتهم وزلاتهم، وينتظر أن يقعوا في الشر والسوء ليقول: لقد وقع في كذا وكذا، ولكن فليعلم هؤلاء أنه من **ينتظر السيئة لأخيه ويحب له أن يقع فيها، يأخذ إثم السيئة قبل أخيه فيصاب بها قبله سواء في فعله أو فيما عند الله تعالى.**

ويترتب على إساءة الظن التجسس، حتى يتأكد من ظنه وأنه قد حدث منه ذلك أو لا، فيقع في النهي ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾ [الحجرات: ١٢]، ثم يقع بعد التجسس في الغيبة لأنه قد تجسس عليه، ووجد أنه يفعل ويفعل، ثم يكون هذا القول سببًا للنميمة والقطيعة

(٤٥) رواه البخاري (٦٠٦٤) كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، ومسلم (٢٥٦٣) كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش.

بينه وبين غيره؛ لأن ما يترتب على سوء الظن والتجسس والغيبة يترتب عليه النميمة وفساد ذات البين كما هو الواقع في هذه الأحوال.

لذلك قطع الشرع بدايتها، وأمر بحسن الظن وأن يحمل عمل إخوانه على المحمل الحسن، فيقول:نعم لعله فعل كذا وكذا، لعل قصده كذا وكذا،، إنه لم يقل فيك إلا الخير، لقد أراد بذلك وجه الله تعالى، لأن الأصل في المسلم أن يحمل ما يبدر منه على المحمل الحسن، ولا يتمنى أن يقع لأخيه السوء، ولكن كما قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[٤٦].

وأيضًا جاء حديث النبي ﷺ الذي يبين الفائزين بالمغفرة ولكنه استثنى من كان بينهم شحناء فقال: « **أَنْظِرَا هذين حتى يصطلحا**»[٤٧] وكذلك في الصوم لا يغفر لهم إلا بترك الشحناء؛ لأن الشرع لن يأمرهم بترك المباح وهم يقعون في الشحناء والبغضاء والقطيعة والخصام وهو حرام ثم يغفر لهم!

لذلك كان بعيدًا أن يتمنى أحد أن يصل إلى بيت الله وفي قلبه شحناء لأحد، لأن من آداب الوصول إلى البيت أن يستحل كل أحدٍ مما وقع فيه من مظلمة أو مما أخطأ

---

(٤٦) رواه البخاري (١٣) كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ومسلم (٤٥) كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

(٤٧) رواه مسلم (٢٥٦٥) كتاب البر والصلة، باب النهي عن الشحناء والتهاجر.

فيه في حقه من مال أو عرض لقوله ﷺ: «**من كان بينه وبين أخيه مظلمة فليتحلله منها** اليوم...» [٤٨].

الرياء والمباهاة

وهي تهم أهل الأيمان جميعهم ، وإن كانت من أهم ما يحتاجه الحاج. **فأول ما ينبغي أن يجتنبه الحاج: الرياء والسمعة والمباهاة، والفخر، والخيلاء**، وأنه قد ذهب ليكون قد حجَّ وأتى بأعمال الحج، ويرجع ليقال له: قد حج هذا العام وحج العام الذي قبله ويحج كل عام، لأن هذه المباهاة وذلك الرياء والفخر من أهم الأسباب المانعة من تحققه ببر حجه، إذ ذلك محبط للعمل، فكيف يتحقق معه بر؟

النبي ﷺ يضرب المثل الحي، فقد حج على رحل رث وقطيفة ما تساوي أربعة دراهم، وقال ﷺ: «**اللهم اجعلها حجة لا رياء فيها ولا سمعة**»[٤٩]، فبين كلام النبي ﷺ هذا الحال المشرف من ترك الرياء ومن الإخلاص لله، ومن الإذعان له والطاعة له ﷻ.

---

(٤٨) رواه البخاري (٢٣١٧) ، ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال : قال رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- : «مَنْ كانت عنده مظلِمَة لأخيه ، مِنْ عِرضِهِ أو شيء منه ، فلْيَتَحلَّلْهُ منه اليومَ ، من قبلِ أن لا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح؛ أُخذَ منه بقدر مَظلِمتِهِ ، وإن لم يكن له حسنات أُخِذَ من سيئات صاحبه ، فَحمِلَ عليه»).

(٤٩) أخرجه ابن ماجه (٢٨٩٠) في المناسك. وأخرجه المنذري في الترغيب (١٨٣/٢).

لذلك ينبغي أن يكون كل حاج على التواضع لله تعالى **بترك الهيئة المعظمة في اللباس والطعام والشراب، وفي المركوب** وغير ذلك، فقد كان ﷺ متواضعا إلى الدرجة العظمى، فلم يكن في قلبه شيء من كبر ﷺ.

لذلك قال ﷺ: «**الحاج أشعث تفل**»[٥٠] يعني: قد اغبر وتغير شكله وتغيرت ريحه، وانتفش شعره، كل ذلك لله تعالى كما ذكر الحديث: «**لما نظر الله جل وعلا عشية عرفة إلى هؤلاء قال: أتوني شعثًا غبرًا**» ومعنى شعثًا: قد تغيرت شعورهم وغير ذلك منهم وظهرت عليهم الروائح التي لا يحبها الخلق، وإنما هذه الروائح قد ظهرت عليهم وهي محبوبة لله تعالى؛ لأنها في سبيله، لأنه كما ذكرنا «**لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك**»[٥١]، وغبرًا: قد تغيروا من الغبار والتراب وقلة الاستحمام والتنظف، فقال فيهم: «**أتوني شعثًا غبرًا ضاحين أشهدكم أني قد غفرت لهم**»[٥٢].

وكان من المباهاة والرياء والسمعة أيضًا أن يحج هذا الحاج بكذا وكذا من المبالغ، وأن يذهب لينزل في الأماكن التي يكون فيها الأكل الطيب، ويلبس اللباس الطيب، وينام النوم الطيب، وينزل في كذا وكذا، ويركب كذا وكذا، فهذا مما قيل فيه كما ذكر السلف: **يقول: لبيك اللهم لبيك يقال له: لا لبيك ولا سعديك**، قد اشترى ناقة بخمسمائة يعني: مركوبًا غاليًا يركبه واشترى راحلة بمائتي درهم واشترى مفرشا بكذا

---

(٥٠) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٣ /٢٥٤)، وقال رواه أحمد ورجال أحمد موثقون.

(٥١) رواه البخاري (١٩٠٤) كتاب الصوم، باب هل يقول إني صائم إذا شتم، ومسلم (١١٥١) كتاب الصيام، باب فضل الصيام.

(٥٢) أورده المنذري في الترغيب والترهيب (١١٣١) وحسنه.

وكذا وكذا، ثم ترجل يعني: رجل شعره وتزين، وركب راحلته ونظر في عطفيه أنَّى يقبل حجه؟

لذلك **كثيرًا من السلف كانوا يشترطون على أصحابهم في السفر الخدمة والأذان، تواضعا لله تعالى وانتظارًا للأجر وتحقيقًا لبر الحج**؛ لذلك يقول مجاهد: صحبت ابن عمر رضي الله عنه لأخدمه فإذا به يخدمني وابن عمر شيخ وأنا شاب.

وكان منهم من إذا ذهب أحد الرفقة ليغسل ثوبه قال: هذا من شرطي، فيأخذ ثوبه منه ليغسله له، وإذا أراد أن يغسل رأسه قال: هذا من شرطي، فيغسل له رأسه، وهذه أخلاق التواضع التي قال فيها: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤].

لذلك كان حديث النبي ﷺ الذي ورد في هذه الحالة، لما كانوا في السفر، وكان بعضهم صائما وكان بعضهم مفطرا، فقام المفطرون بالسقاية، وقام المفطرون كما يقولون: يعني بإنزال الركب وبالسقاية والإطعام والقيام عليهم قال النبي ﷺ: «**ذهب المفطرون اليوم بالأجر**»[٥٣].

التوبة من الأخلاق الرديئة

فإن كنت قد وقعت في شيء من الأخلاق الرديئة التي بينا ، أو غيرها مما خالفت فيه الرسول صلى الله عليه وسلم **فكان سببًا لإشاعة البغضاء والعداوة، أو التقاطع والتدابر، أو الحسد**، أو غير ذلك من التناجش والمكر والاحتيال، أو النميمة والغيبة،

(٥٣) رواه الإمام البخاري في صحيحه (٢٨٩٠).

أو غير ذلك من الصفات المرذولة، **فلا بد أن تتوب منها اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم وإنما هي الحسنات والسيئات** ، لابد أن تخرج منها اليوم، وأن تستحل أصحابها اليوم؛ لأنه لا يمكن أن تحل هذه القضايا مع الله جل وعلا إلا بالتوبة، فهي الخطوة الأولى لمن صحت نيته في التخلي عن هذه الأخلاق الردية.

وذلك لأن هذه التوبة يرجو بها المرء من الله تعالى أن يحمله إليه، وأن يحمله بشوقه إلى التوبة، وبشوقه إلى المغفرة، ليخرج شخصًا جديدًا مع الله تعالى، قد تحول كلامه إلى الكلام الذي يحب فيه الخير لإخوانه، وينبض قلبه بمحبة كل الخير لهم، لا أن يكون منبع الشر والفساد بينهم، وإنما قلبه قد تحول إلى أن يكون على قلوب هؤلاء السلف الصالحين؛ من محبة الخير لإخوانه، وأن تتفجر جوانبه خيرًا لهم، في أقوالهم، في أفعالهم، في مساعدتهم، في مواساتهم، في حفظ حقوقهم، في حفظ غيبتهم، في القيام بمصالحهم، في السعي لهم، في أن يقوم بكل ما يمكن أن يكون سبب صلاحهم وسعادتهم، أو سبب فلاحهم في أولاهم وأخراهم .

ومن لوازم التوبة أيضًا أن يعزم المرء على ألا يعود إلى تلك الأخلاق الخبيثات المرذولات، وإنما يصفي نفسه، ويصفي قلبه، ويصفي أعماله وأقواله؛ لتكون نافعة له خالصة لله تعالى يوم القيامة: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (الشعراء: ٨٨، ٨٩)، ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ (عبس: ٣٣: ٣٧).

ولا تكون توبة المرء صحيحة حتى يتحقق فيها شرطها المهم، وهو الكف عن هذه الأخلاق الرديئة التي كانت سببًا في بُعد المرء عن الأخلاق العالية التي تجعله من أقرب الناس وأحبهم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وطريق التخلي عن هذه الأخلاق الرديئة هو طريق مجاهدة النفس.

مجاهدة النفس على التخلي عن الأخلاق الرديئة

فلا بد أن تفتش في نفسك، فتنبذ ما كان من أخلاق مرذولة، **وما كان من أخلاق حسنة أنت مقصر فيها، بدأت في مجاهدة نفسك على التخلق بها**، والسير بها إلى الله تعالى، عالمًا بأنه كلما ازداد نصيبك من الأخلاق ازداد نصيبك من الدين.

لا بد إذن أن ترفع لهذا الحال راية المجاهدة، لتتخلص من تلك المساوئ وتتصف بتلك المحاسن، فكلما اتصفت بها من خلق يوشك أن تنتصر على نفسك، ويوشك أن تحقق أسباب نجاتك، ويوشك أن تكون عنصرًا يؤمل في نصر دين الله تعالى.

أما أن يبقى المؤمنون على هذا الحال السيئ وتلك الأخلاق الرديئة التي هم فيها، فأنى يقبل عملهم أو يغفر لهم؟ وأنى يصلون إلى هذا الشوق الذي يحملهم إلى بيته أو الذي تتحقق به مغفرة الله لهم؟ وأنى يصلون بعد ذلك إلى أن يرفعوا راية الهجرة وراية الجهاد وراية البذل؟

إنهم إذا لم يفكروا في إصلاح أنفسهم بهذه الطريقة، فإن الطريق مقفل أمامهم، وسيكون أطول مما يتخيلون، وليس ثَمَّ طريق آخر يمكن أن يسلكه المرء حتى يصل إلى هذه الأخلاق التي أمر بها الشارع ويحبها النبي صلى الله عليه وسلم للمؤمنين.

لذلك، فمن أراد النجاة **فعليه مجاهدة نفسه للتخلي عن هذه الأخلاق المرذولة،** فيمسك لسانه في الدنيا، ويمسك قلبه عن الحسد والغش والحقد، ويمنع قلبه عن طول الأمل والكبر، ثم يمنع ظاهره كذلك من هذه الأخلاق ؛ فيمنع لسانه، وبصره، وسمعه، وبطنه، ورجله، ويده، أن تكون سببًا لرداه وهلاكه عند الله تعالى.

بعد ذلك يظهر أصحاب الأخلاق الحسنة؛ المتواضعون ، ويظهر كذلك الكرماء والسمحاء، ويظهر أصحاب سعة الصدر، ويظهر الباذلون لأموالهم وأنفسهم، ويظهر المتحملون للأذى الذين أخذوا حسنات غيرهم أو تخففوا من سيئاتهم، فدخلوا الجنة.

ومن ثم كانت التوبة من هذه الأخلاق هي المحك الرئيسي لما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون السائرون إلى الله تعالى؛ لأن المرء تخلق بأي خلق من هذه الأخلاق الرديئة، بأنه لو شتمه شاتم أو اغتابه مغتاب، إذا به ينقلب على عقبيه، فلا يتحمل الأذى ولا يكف الأذى، ويحاول أن يؤذيه كما وقع منه الأذى، ويثأر لكرامته، ويقول: قد فعلت له كذا وكذا ثم كان رد الجميل أن يفعل في كذا وكذا وأن يغتابني وأن يتطاول علي، ويقابله بمثل هذه الأخلاق، فكيف يدعو غيره إلى الله تعالى وهو على هذا الحال ؟ هذا هو امتحانك اليوم في كل قضايا الأخلاق التي ينبغي تتخلق بها.

لا يمنعك حينئذ كراهة الكاره، ولا منع المانع، ولا يمنعك أذى المؤذي، في أن تكون على الأخلاق الحسنة وأن ترد بأحسن منها؛ كما ذكر المولى جل وعلا: ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ ﴾ (المؤمنون: ٩٦) **لم يقل ادفع السيئة بالسيئة، لم يقل من شتمك اشتمه كما شتم، وكما ضرب يضرب،** كلا، لأنك حينئذ تبقى كما أنت مرذول الأخلاق بعيدًا عن النبي صلى الله عليه وسلم.

علمت طريقك، طريق المجاهدة للتخلص من الأخلاق المرذولة، عاهدت الله على السير في هذا الطريق، وأن لِتُوفي لله تعالى، **ومن وفى لله تعالى فإن الله يوفي له جل وعلا،** فلا بد حينئذ أن يكون خلقك على هذه الدرجة التي تود بها أن يغفر الله لك ، وإن غفر لك بها، فلا حاجة لك بعد ذلك إلى الناس جميعًا، وإن غفر لك وكفر سيئاتك فقد فزت فوزًا عظيمًا كما ذكر المولى سبحانه وتعالى.

<u>دور الأخلاق السيئة في تشويه صورة الدين</u>

وهي المسألة الخطرة التي ينبغي أن يتنبه إليها المؤمنون، لأن البعض يظن أنه عندما يأتي بالأخلاق السيئة، إنما يفعل ذلك لدين الله، ولا زالت نفوسهم تجادلهم وتمنعهم من أن يكونوا على الأخلاق الحسنة، وهم يظنون أن ذلك لدينهم وآخرتهم، وما هي إلا مصيبة اتباع الشيطان والهوى والنفس، التي ذكرها العلماء.

مختصر القضية: لا يظن أحدٌ أن الأخلاق السيئة تأتي بخير. **إن رفع راية دين الله تعالى لا ينتظر منك كذبًا و لا بغضاء، ولا ينتظر منك ظلما ولا قطيعة ولا غيبة ولا نميمة**

ولا سخرية، فلا تظن أن هذا الدين ينتظر منك هذه الأخلاق حتى ينتصر بها، أو حتى ترتفع درجتك عند الله تعالى، فتُسند هذه الأخلاق السيئة إلى الدين. من الذي قال: أن تظلم إخوانك، أو أن تعاملهم بجفاء وقسوة، أو أن تتطاول عليهم، أو أن تسخر منهم، أو أن تظلمهم، أو أن تغتابهم، أو أن تنم بينهم وبين غيرهم، أو غير ذلك، إنما يحدث لدين الله تعالى ؟! **لا**، دين الله مستغن عنك وعن هذه الأخلاق السيئة، وقد أبلغك دين الله أنه ليس في حاجة إلى هذه الأخلاق ليرفع درجتك أو لينتصر على الكفرة، وإذا كان سينتصر على الكفرة بالأخلاق السيئة فالأولى أن ينتصر بالأخلاق الحسنة، فتعلم يقينًا أن تلك الأخلاق السيئة لا يريدها الله تعالى منك.

ومثال ذلك، هذا الذي يسلك الطرق الملتوية حتى يُحصل تأشيرة الحج، فيدفع الرشوة لذلك. **لا**، الله جل وعلا في غنى عن أن ترشي لتصل إليه، أو أن تفعل مخالفة من هذه المخالفات. **إن أراد الله لك أن تصل إلى بيته ستصل**، ولتصل حينئذ إلى بيته جل وعلا على أحسن حال بغير مخالفة للشرع، وبغير خروج عن حدود الله جل وعلا.

لعل هذه الموعظة أن تكون سببًا لإصلاح المرء نفسه فيما بينه وبين الله، وبينه وبين إخوانه، وبينه وبين العالمين من أهل الإيمان؛ ليكون هذا الصلاح سببًا لذلك البر الذي يأخذ بيده إلى زيارة بيت ربه، أو الذي يرفع درجته فيكون من الأبرار، كما جاء في اللفظ الجميل: ﴿ **إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ** ﴾ (الانفطار: ١٢)، أن يصير من هؤلاء الذين مدحهم الله تعالى، وأثنى عليهم، ووعدهم سبحانه وتعالى أعظم الوعد فيما يحققون من هذا البر بإخوانهم وأهلهم ووالديهم ؛ لأنه إن لم يتعلم البر اليوم، فلن يتعلمه بعد

ذلك. من أين يتعلمه إذا كان قد قضى هذه السنين الطويلة وما زال كما هو، لم يتزحزح شيئًا عن تلك الأخلاق التي أشرنا إليها؟ ولا يصل المرء إلى مرحلة البر حتى ينتهي من المرحلة التي قبلها، والتي دونها بأن يكف شره وفساده وإفساده، ويكف بصره وسمعه ولسانه عن إخوانه، في هذه الحالة يستطيع أن ينتقل إلى المرحلة التالية أو أن يرفع درجته فيكون هو الأقرب إلى النبي صلى الله عليه وسلم: « **إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا** » (٥٤) وقوله كذلك ﷺ : «**وإن المؤمن ليبلغ بحسن خلقه درجة الصائم القائم** » (٥٥)، فيحسن لإخوانه، ويحب لهم الخير، ويفرغ من إنائه في دلوهم، ويواسيهم في ضرائهم، ويفرح لسرائهم، ويكون معين خير، وبؤرة نور تنير لمن حوله، وتجمع الناس وقلوبهم على السير إلى الله تعالى.

حقوق المسلم على المسلم

وفي النهاية نشير سريعًا إلى تلك الحقوق لتكون هي الدرجة التالية التي ينتقل إليها المرء، وهي الحقوق التي بينها النبي صلى الله عليه وسلم: « **حقُّ المسلم على المسلم**

(٥٤) رواه الترمذي (٢٠١٨) وقال حديث حسن ، وصححه ابن حبان (٢/٢٣١) ، ولفظه (عَنْ جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – : أَنَّ رسولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– قال : «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكم إِليَّ ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِي مَجْلِسا يَوْمَ القِيَامَةِ : أَحَاسِنُكم أخلاقا ، وَإِنَّ أَبغَضَكُمْ إِلَيَّ ، وَأَبْعَدَكُمْ مِني مَجْلسا يَومَ القِيامةِ : الثَّرْثَارونَ والمُتَشَدِّقُونَ وَالمُتفَيْهِقُونَ ، قالوا : يا رسولَ الله ، قد عَلِمْنَا الثَّرثَارون والمُتَشدِّقون ، فما المُتَفَيْهِقونَ ؟ قال : المُتَكَبِّرونَ»).

(٥٥) رواه أبو داود (٤٧٩٨) وصححه ابن حبان (٢/٢٢٨) ، ولفظه (عَنْ عائشة – رضي الله عنها – : قالت : سَمعتُ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول : «إِنَّ المؤمنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ : دَرَجَةَ الصَّائِمِ القَائِمِ»).

سِتّ ، قيل : ما هنَّ يا رسولَ الله ؟ قال : إذا لقيتَه فسلِّمْ عليه ، وإذا دَعَاكَ فأَجِبْهُ ، وإذَا استنصحَكَ فانْصَحْ له ، وإذا عَطَسَ فَحمِدَ الله فشَمِّتْه ، وإذا مرضَ فعُدْه ، وإذَا ماتَ فاتْبَعْهُ » (٥٦) فكل هذه الحقوق لا ينبغي أن ينزل المرء عنها ، ولكن لا بد أن يسارع إليها حتى تكون سببًا لأن يكون المؤمنون كما ذكر النبي: « **مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر** » (٥٧) إذا اشتكى منه رأسه إذا بجسمه كله مريض، يحتاج إلى من يقوم به، و يخفف عنه، ويصف له الدواء الذي يصلح به حتى يعود إلى قوته ونشاطه. لا أن ينظر إلى أخيه شامتًا مسرورًا أن وقع في هذه المصائب، أو أن أصابته تلك المحن، وإنما تحس بها أصابه كأنه قد أصابك، وإذا لم تحس بذلك فما لجرح بميتٍ إيلام !



(٥٦) أخرجه البخاري(١١٨٣) ، ومسلم (٥٧٧٨) ، واللفظ لمسلم: (عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «حقُّ المسلم على المسلم سِتّ ، قيل : ما هنَّ يا رسولَ الله ؟ قال : إذا لقيتَه فسلِّمْ عليه ، وإذا دَعَاكَ فأَجِبْهُ ، وإذَا استنصحَكَ فانْصَحْ له ، وإذا عَطَسَ فَحمِدَ الله فشَمِّتْه ، وإذا مرضَ فعُدْه ، وإذَا ماتَ فاتْبَعْهُ).

(٥٧) أخرجه البخاري (٥٦٦٥) ، ومسلم (٢٥٨٦): (عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِى تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»).

الفصل الثالث:

حسن الخُلق

فبعد أن بينا في الفصل السابق الأخلاق السيئة المرذولة التي توشك أن تكون سبب هلاك المرء في الدنيا والآخرة، فبدأت التخفف منها، والخروج من قيودها، والتحلل من آصارها وأغلالها، حتى تستطيع أن تنجو أولًا بنفسك؛ إذ دين الله تعالى موقوف على تحقيق أسباب نجاة كل أحد، فإن استطاع المرء أن يحقق نجاة نفسه فسيحقق نجاة غيره بدعوته إلى الله وأخذ يده إليه سبحانه وتعالى، إن استطاع أن يحقق أسباب نجاته كان أولى برفع الراية من غيره؛ لأنه حينئذ يستطيع أن يبذل نفسه مطمئنًا لله، وماله مطمئنًا لله، محبًا إلى ذلك، مسارعًا فيه، متنافسًا عليه.

ففي هذا الفصل نتوجه بالحديث لمن اشتاق إلى الله تعالى، وإلى زيارة بيته الحرام، واشتاق إلى المغفرة في عرفات، واشتاق إلى أن يعوض ما فاته، وأن يرفع راية الدين، وأن يغير أحواله السيئة ، فها قد جاءت الفرصة حتى يجاهد المرء نفسه في هذه الأيام على المسارعة للتحقق بأعمال البر التي تكون سببًا لبر حجه، كما جاء في قول النبي صلى الله عليه وسلم: « لَيْسَ لِلحَجِّ الْمَبْرُورِ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةَ »(٥٨).

وقد أشرنا في الفصل السابق إلى أن الحج حتى يكون سببًا للمغفرة وسببًا لدخول الجنة، ينبغي أن يتحقق فيه أمرين:

---

(٥٨) رواه البخاري (١٧٧٣) كتاب الحج، باب وجوب العمرة وفضلها، ومسلم (١٣٤٩) كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة.

الأول: أن يتجنب أعمال الرفث والفسوق والعصيان.

الثاني: أن يأتي في حجه كل أعمال البر. وهذه الأيام هي فرصته على تدريب نفسه على هذه الأعمال، حتى إذا جاء الامتحان في أيام الحج، ورأى الكل ممسك بماله، والكل ممسك بشرابه وأكله وراحته ونومه، والكل يفضل أن يكون ركوبه هو الأحسن وهو الأفضل، وأن يزاحم ليحصل على شيء، إذا به هو قد وصل إلى هذا المعنى الجميل من معاني البر؛ أنه يطعم الطعام، ويفشي السلام، وإذا به في شدة المزاحمة والمخاشنة في القول والفعل، إذا به لين الكلام طلق الوجه، يفعل ذلك كله انتظارًا لتنزل رحمة الله تعالى عليه.

وأعمال البر تفسر على معنيين:

الأول: ما جاء في حديث النبي ﷺ الذي بيَّن فيه المعنى الجامع للبر فقال: « **البر حسنُ الخلق**» [٥٩] والحديث الآخر المتعلق بالحج، أنه لما سئل ﷺ عن بر الحج: « **قالوا: وما بر الحج؟ قال: إطعام الطعام، وإفشاء السلام، ولين الكلام** » [٦٠] وكذلك قول ابن عمر رضي الله عنهما: «**البر شيء هين؛ وجه طلقٌ، وكلامٌ لين**» [٦١].

(٥٩) رواه مسلم (٢٥٥٣).

(٦٠) أورده الإمام الغزالي في الإحياء ولينه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١/٣٥١) وقال الشيخ الألباني : حسن بمجموع طرقه / انظر السلسلة الصحيحة (١٢٦٤).

(٦١) أخرجه ابن عساكر (٣١/ ١٧٦) موقوفًا على ابن عمر رضي الله عنهما.

وهو معنى الإحسان إلى الخلق وحسن معاملتهم بالجميل من القول والفعل، وأن يقوم المرء بما يكون سببًا لصلاحهم من الفعل الحسن وطيب الكلام وطلاقة الوجه ومن القيام على شئونهم، وأن يكون ذلك كله على الرضا والمحبة وانشراح الصدر، يود أن يكون ثوابه الأعظم عند الله تبارك وتعالى، ليس بالملل، وليس بالضجر، ولماذا يقوم له بهذا؟ ويتأفف ويستثقل أن يقوم لإخوانه أو لأبيه أو لأمه أو لقريبه بعمل، ويكون همًا على قلبه أن يستقبلهم، أو أن يستضيفهم ويكرمهم، أو أن يقضي مصالحهم، أو أن يسعى في القيام على شيء من حقوقهم التي تكون سبب تحصيله لهذا الخُلق.

والثاني: ما جاء في قول الله تعالى في الآية الكريمة : ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] ومعناه **أن البر الإتيان بأعمال الشريعة من أولها إلى آخرها**.

ولما كان القرآن جامعًا لآداب الشريعة من أولها إلى آخرها، وكان ﷺ متأدبًا بآدابه في الأوامر والنواهي، والاعتقادات والمعاملات، والأخلاق والسلوك، فيما بينه وبين الله، وفيما بينه وبين الناس، فكان إتيانه ﷺ لهذه الآداب القرآنية هو حسن الخلق الذي

هو البر. لذلك كان وصف النبي ﷺ كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «**كان خلقه القرآن**»[٦٢]

ونخصص هذا الفصل للكلام عن المعنى الأول من معاني البر **وهو حسن الخلق بمعنى الإحسان إلى الخلق**. وهذه المسألة هي قضية القضايا التي ينبغي أن ينظر فيها المؤمنون، لأن حسن الخلق هو الدين كله؛ وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « **إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» [٦٣] أو: «**لأتمم صالح الأخلاق**» [٦٤] .

وقد قال ابن القيم وغيره من الأئمة: الدين هو الخلق، **ومن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين**، لأن حسن الخلق هو آداب الشريعة من أولها إلى آخرها، **وكلما نقص حظك من الخلق نقص حظك من دين الله تعالى**، ونقص حظك من أخلاق الشريعة وآدابها التي أدب بها عباده المؤمنين، وكذلك نقص حظك من هذه الدرجات الرفيعة

---

(٦٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وقال الشيخ الألباني في صحيح الأدب المفرد رقم (٢٣٤): صحيح لغيره.

(٦٣) رواه البيهقي (١٩١/١٠ ، رقم ٢٠٥٧١) ، وقال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٢٤٣/٤) : رواه أحمد والبيهقي والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة. ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- :« إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ »).

(٦٤) أخرجه أحمد (٣٨١/٢ ، رقم ٨٩٣٩) والحاكم (٦٧٠/٢ ، رقم ٤٢٢١) وقال : صحيح على شرط مسلم. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٧٣/٨) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. وقال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٢٤٣/٤) : رواه أحمد والبيهقي والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة. ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- :« إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاَقِ »).

والمنازل العالية التي إن حققها المؤمنون اليوم، بمجاهدة أنفسهم على القيام بها فإنها أثقل شيء في موازينهم في الدنيا والآخرة، و هي كذلك أعلى درجاتهم في الجنة قربًا من النبي ﷺ.

وأحوال المؤمنين اليوم على عكس ذلك، فحتى إن ظهر من بعضهم خلق حسن، فعند المحك وعند الاختبار تظهر الأخلاق السيئة، والأقوال الرديئة، وسرعة المرء إلى الغضب، إلى أن ينتهك حرمات الله تعالى، ولا يتحمل الأذى، ويرد السيئة بالسيئة، ثم ينقلب من السيئة إلى سوء الظن، ثم إلى البغضاء والشحناء والتدابر، ثم بعد ذلك إلى الوقيعة والحسد والقطيعة وانتظار أن يقع بإخوانه من المصائب والبلايا والمحن ما يشرح صدره ويشفي غله، ويفرح أن ينزل بهم ذلك، ويشمت في إخوانه، ويدَّعي أن الله تعالى قد انتقم له، أو أن الله تعالى قد أخذ له حقه منهم، وكل هذا يدل على فساد النية، وخبث الطوية، ولا يمُت إلى النبي ﷺ وخلقه المشرف بصِلة.

النبي ﷺ قال: «**أَكْمَلُ المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم**»[٦٥] فبينت كلمات النبي ﷺ **أن الخُلق متعلقٌ بالإيمان**، وأن كمال الإيمان مرتبط بعلو الأخلاق «**أَكْمَلُ المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا**» ، فلا يكمل إيمان المرء إلا أن يكمل خلقه، فوضح هذا الكلام ارتباط الإيمان في علوه ونزوله وكماله عند الله تعالى بقضية الأخلاق، لذلك فمهمة المؤمنين هذه الأيام، كيف يكونون في أخلاقهم

(٦٥) رواه الترمذي (١١٦٢) كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، وقال: حديث حسن صحيح.

وأقوالهم، وفي ظاهرهم وباطنهم، وفي تصرفاتهم وعلاقتهم وسلوكهم عل الخلق الحسن الذي بينه النبي ﷺ.

والأهل هم الأحق بحسن خلقك، ويُخص من ذلك **الوالدان**، لأنه لما سُئل النبي ﷺ : «**من أحق الناس بصحبتي؟ قال: أمُّك. قال: ثم من؟ قال: أبوك. قال: ثم من؟ قال: الأقرب فالأقرب**»(٦٦). فيكون برُّك على هذا التسلسل: الدرجة الأولى من البر الذي ينبغي أن تقوم به:أمك، ثم: أبوك، ثم: الأقرب فالأقرب.

ويبين خطورة حسن الخلق حديث النبي ﷺ: «**إنَّ أثقل شيءٍ في ميزان العبد المؤمن يوم القيامة حسن الخلق وإن الله يبغض الفاحش البذيء**»(٦٧) والمؤمنون يوم القيامة يحتاجون إلى حسنة واحدة يثقلون بها موازينهم لأنه كما قال: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢]، فإذا بحسن الخلق أثقل شيء في ميزان العبد يوم القيامة، لأنه لَمَّا كمُل خلقه كان ميزانه أثقل، وكان سبيله إلى الجنة.

ويقول كذلك ﷺ: « **أنا زعيم ببيتٍ في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًّا، وأنا زعيم ببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب ولو كان مازحًا، وأنا زعيم ببيت في أعلى**

---

(٦٦) رواه البخاري (٥٩٧١) كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن صحابتي، ومسلم (٢٥٤٨) كتاب البر والصلة والآداب، باب بر الوالدين وأنهما أحق به.

(٦٧) رواه الترمذي (٢٠٠٢) كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، وقال: حديث حسن صحيح.

الجنة لم حسن خلقه »(٦٨) فهذه الكلمات الوضيئة من كلمات النبي ﷺ تبين هذه الدرجة العالية التي يحوزها أصحاب الأخلاق الحسنة.

لذلك قال النبي ﷺ: **«اتَّقِ الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن»**(٦٩) فلما نصَّ النبي ﷺ على حسن الخلق واختصه من درجات التقوى، دل ذلك على جماع الخير، وعلى أن حسن الخلق هو أعلى درجاتها، وأنه الإنسان بحسن خلقه وحسن تعامله وكف لسانه، وبحبه للناس ما يحب لنفسه، أو تقديمهم على نفسه يكون على درجة عالية في مكارم الأخلاق، فإذا به يدرك منزلة الصائم القائم كما قال النبي ﷺ: **«إنَّ المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجة الصائم القائم»**(٧٠) ، فإذا وصل إلى تلك الحالة السامية صار أقرب الناس وأحبهم إلى النبي ﷺ.

ويبين ذلك قول النبي ﷺ: **« إن من أحبكم إلي و أقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا »** (٧١) . وذلك يدفعك لأن تتسابق في الوصول إلى هذه الدرجات

---

(٦٨) رواه أبو داود (٤٨٠٠) كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، وقال: حديث حسن.

(٦٩) رواه الترمذي (١٩٨٧) كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معاشرة الناس، والدارمي (٢٧٩١) كتاب الرقاق، باب في حسن الخلق.

(٧٠) رواه أبو داود (٤٧٩٨) كتاب الأدب، باب في حسن الخلق.

(٧١) رواه الترمذي (٢٠١٨) وقال حديث حسن ، وصححه ابن حبان (٢/٢٣١) ، ولفظه (عَنْ جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – : أَنَّ رسولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– قال : «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكم إِلَيَّ ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِي مَجْلِسا يَوْمَ القِيَامَةِ : أَحَاسِنُكم أخلاقا ، وَإِنَّ أَبغَضَكُمْ إِلَيَّ ، وَأَبْعَدَكُمْ مِنِي مَجْلسا يَومَ القِيامةِ : الثَّرْثَارون والْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيْهِقُونَ ، قالوا : يا رسولَ الله ، قد عَلِمْنَا الثَّرثَارون والْمُتَشَدِّقون ، فما الْمُتَفَيْهِقونَ ؟ قال : الْمُتَكَبِّرونَ»).

العلى من الأخلاق الحسنة، والصفات الجميلة، التي بها ترتفع منزلتك عند الله تعالى، وتبلغ بها درجة الصائم القائم، والتي تتحرك بها حينئذ فتكون سببًا لنزول البركة وتنزل الرحمة، وسببًا في نشر الدين، ودعوة الناس إلى الله تعالى.

وقد كان صحابة النبي ﷺ على هذا الحال. ورغم وجود هذا المجموع الضخم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فقد رأينا الكل يتعامل بهذه الأخلاق الحسنة، الكل يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، بل أن أصحاب الدرجة الأعلى في صحابة النبي كانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، الكل يود بذلك أن يكون هو الأقرب إلى الله جل وعلا، وإلى النبي صلى الله عليه وسلم .

ولا يكون الأحب إلى النبي والأقرب إليه أناس قد حيل بينهم وبين الني بأخلاقهم السيئة أبدًا. لا بد ليكونوا الأقرب إليه أن يكونوا الأولى به صلى الله عليه وسلم، لذلك وجدنا الأولى به والأقرب إليه صلى الله عليه وسلم أصحابه المكرمين؛ أبا بكر وعمر وغيرهم من أصحاب النبي؛ لأنهم قد وصلوا الدرجة العليا - التي يصل إليها البشر من دون الأنبياء- في أخلاقهم وأعمالهم، وبالتالي لما وصلوا إلى هذه الأخلاق وصلوا إلى البذل، والعطاء، والجهاد، والدعوة، والدين، والفهم وسلامة الصدر، والوفاء، وحب الخير للناس. وصلوا إلى الكرم، والجود، والإحسان. **وصلوا إلى سماحة النفس التي بها يبذل المرء لا يتأخر، التي يعطي بها المرء لا ينتظر شيئًا، التي يصل بها المرء إلى الدرجات العلى والنعيم المقيم.**

وإذا كان قول النبي صلى الله عليه وسلم: « **إن أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق** »[٧٢] يبين أن أكثر ما يدخلهم الجنة «**تقوى الله**» يعني ما بينهم وبين الله من تقوى، «**وحسن الخلق**» وهو ما بينهم وبين الناس من المعاملة الحسنة؛ بمعنى أن دخول الجنة نفسه موقوف على حسن الخلق. فإن المعنى التالي في الحديث، أن سوء الخلق هو سبب دخول النار، فإذا أتى المرء بأخلاق قليلة سيئة من الأخلاق التي نعاني منها اليوم، لا نقول كثيرة ، ولكن إذا أتى وقد شتم هذا، وسب هذا، وسفك دم هذا، وأكل مال هذا، هل سيدخل الجنة؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: « **يأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا فنيت حسناته أخذ من سيئاتهم فوضع على سيئاته، ثم طرح في النار** »[٧٣] كان إذًا سوء الخلق سبب دخوله النار !

والنبي ﷺ في هذا الحديث قد أشار ببعض الأخلاق السيئة دليلاً على بقية الأخلاق التي تكون سببًا لرجوح كفة السيئات في ميزان المرء، فلن يقول صلى الله عليه وسلم

---

(٧٢) أخرجه أحمد (٢/٤٤٢ ، رقم ٩٦٩٤) ، والبخاري في الأدب المفرد (١/١١٠ ، رقم ٢٩٤) ، والترمذي (٤/٣٦٣ ، رقم ٢٠٠٤) وقال : صحيح غريب . والحاكم (٤/٣٦٠ ، رقم ٧٩١٩) وقال : صحيح الإسناد . وابن حبان (٢/٢٢٤ رقم ٤٧٦)، ولفظه: (أكثر ما يُدْخِلُ الناسَ الجنَةَ تقوى الله وحسن الْخُلُقِ وأكثر ما يُدْخِلُ الناسَ النارَ الأجوفان الْفَمُ وَالْفَرْجُ).

(٧٣) رواه مسلم (٦٧٤٤)، ولفظه: (عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال :قال رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- يوما : «أتَدْرُونَ ما الْمُفْلِسُ ؟ قالوا : المفْلسُ فينا من لا درهم له ولا متاع. قال : إن المفْلسَ مَنْ يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي قد شَتَمَ هذا ، وقذفَ هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيُعطَى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قبل أن يُقْضى ما عليه ، أُخِذَ من خطايهم فطُرِحَتْ عليه ، ثم يُطْرَحُ في النار»).

ومن اغتاب هذا، ومشى بالنميمة بين هذا وهذا، وكذا وكذا، وإنما بين لك شيئًا قليلاً تستدل به على الباقي، فإنك إن ذهبت إلى الله تعالى وقد اغتبت هذا، وشتمت هذا، وسببت هذا، ونممت على هذا، وظننت الظن السيئ بهذا، وقاطعت هذا، وتدابرت مع هذا، وغدرت بهذا، وظلمت هذا، كل هؤلاء سيمنعونك من دخول الجنة؛ لأنك قد أتيت بما يعاكس الأخلاق التي يدخل بها المرء الجنة.

هدفك اليوم إذن: كيف تصل إلى أن تكون من أحب الناس إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؟ كيف تصل لأن يكون مجلسك الأقرب إلى مجالس النبي صلى الله عليه وسلم؟ كيف تتحلي بالأخلاق الحسنة التي **ينبغي أن تتخير أعلاها وأحسنها لتبدأ في مجاهدة نفسك عليها** ؟ ونبدأ تبيين مراحل هذا الطريق بدرجة اصطناع المعروف.

درجات الإحسان إلى الخلق : اصطناع المعروف

وهي المرحلة الأولى في طريق الأخلاق الحسنة في التعامل مع الخلق. ولأهمية هذه المرحلة، فقد علم فيها النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين أعمالها، وأوصاهم ألا يحتقروا منها شيئًا. حتى أدنى درجات البر التي يمكن أن يحتقرها المرء ولا يقوم بها، استصغارًا لشأنها وحقارتها، أو لقلة قيمتها أمر النبي صلى الله عليه وسلم القيام بها.

فلا تبالي أن يكون هذا العمل من أعمال البر عملاً صغيرًا أو حقيرًا، أو ليس له قيمة عندك، فإنه له قيمة عند الله تعالى، لأن ذلك هو السبيل لأن تصل إلى درجة أن تحب لإخوانك ما تحب لنفسك، مرورًا بأعمال الإحسان، وتفريج الكربات، وستر العورات، إلى أن تصل إلى الدرجة العليا، بأن تؤثرهم على نفسك، كما قال الله تعالى.

وقد بين النبي ﷺ ذلك في الحديث الذي نذكره كثيرًا، قال: « **لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تعطى صلة الحبل، ولو أن تعطي شسع النعل، ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستقي، ولو أن تنحي الشيء من طريق الناس يؤذيهم، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منطلق، ولو أن تلقى أخاك فتسلم عليه، ولو أن تؤنس الوحشان فى الأرض** » (٧٤)

وقد ذكر ﷺ هذه الأمور؛ لأنها محتقرة في أعمال الناس، ولكننا للأسف قد نزلنا إلى أدنى من ذلك من التكاسل والتقاعص عن القيام حتى بمثل هذه الأعمال المحتقرة !

إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يسارعون إلى الدرجات العلى، والنعيم المقيم في جوار النبي ﷺ، لم يكونوا كما يقال اليوم: لا هم في العير ولا في النفير، وإنما كانوا يسارعون في الاستجابة لكلام الله تعالى، وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم، وكانوا ينظرون إلى الأعلى، وينظرون إلى تلك الأعمال التي لها شأن وقيمة؛ مثل السعي في تفريج الكربات، والسعي مع الملهوف بشدة رجليه ، والقيام بشدة ساعديه ليحمل عن الذي لا يستطيع، فيسافر معه، ويعرض نفسه للخطر معه، يفعل كذا وكذا معه.

---

(٧٤) أخرجه أحمد (٤٨٢/٣ ، رقم ١٥٩٩٧) ، وصححه ابن حبان (٥٢٢) ، والبخاري في الأدب المفرد (١١٨٢) ، ولفظه: (لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تعطى صلة الحبل، ولو أن تعطي شسع النعل، ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستسقي، ولو أن تنحي الشيء من طريق يؤذيهم، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منطلق، ولو أن تلقى أخاك فتسلم عليه، ولو أن تؤنس الوحشان فى الأرض، وإن سبك رجل بشيء يعلمه فيك، وأنت تعلم فيه نحوه؛ فلا تسبه، فيكون أجره لك ووزره عليه، وما سرَّ أذنك أن تسمعه فاعمل به، وما أساء أذنك أن تعمل به فاجتنبه).

ولما رأى النبي ﷺ أن انشغالهم بالعظيم من الأمور تحصيلاً للعظيم من العون والمدد من الله دلهم على أن هناك من لا يستطيع أن يقوم بهذه الأمور العظيمة، فلا يحتقرونها، وإنما كذلك يسارعون إليها، فإنها من فضل الله الذي يسره لهم، ومن عون الله تعالى ليكون في عونهم، ومن ثواب الله جل وعلا الذي يفيض عليهم إن هم قاموا به، **فإن الله جل وعلا يعطي على ذلك المعروف وعلى اصطناعه للناس، ما لا يتخيل المرء من الثواب والأجر إن صحة نيته** وأقبل عليه يريد بذلك وجه الله جل وعلا.

ويدل على ذلك الكثير مما أورده الشارع. فقد دخلت امرأة الجنة في كلب سقته، وكانت امرأة بغيًا، ولكن نزلت إلى البئر، وملأت خفها، ثم قامت فسقت الكلب الذي وجدته يلهث من شدة العطش، فشكر الله لها ذلك الفعل القليل، شربة ماء سقتها لكلب، وغفر لها ما كان منها من الموبقات وأدخلها الجنة سبحانه وتعالى.

لذلك لا تحتقر شيئًا من المعروف، وكذلك لا تحتقر شيئًا من المعصية؛ فقد تقول الكلمة لا تلقي لها بالًا، تهوي بها في النار سبعين خريفًا من غضب الله تعالى! مجرد كلمة تقولها، كلمة يمكن أن تسيء بها إلى إخوانك، أو تكون سببًا لفرقتهم، فتكون سببًا لغضب الله عليك لمخالفتك أمر الله جل وعلا، وأنت لا تشعر.

إن أقل درجات المعروف الذي تحتقره العين وتقلل من شأنه؛ أن تقف فتسقي امرءًا، وتعطيه شربة ماء، وهي التي أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم: « **ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي** » وهذه تحتاجها في أعمال الحج، وإن لم تتدرب عليها من اليوم فلن تستطع أن تستكمل تلك الأخلاق في الحج. ماذا سوف يضيرك في

ذلك؟ عندما يقول المرء لأخيه: اسقني، يستكبر أن يذهب ليأتي إليه بالماء: لماذا لا يقوم هو فيشرب؟ لماذا ؟ **لا تحتقر هذا المعروف، اذهب إليه واصطنع هذا المعروف، كبيرًا أو صغيرًا**، لكلبٍ حقير يلهث، أو امرءًا محترمًا تسقيه، تأخذ فيه الأجر والشكر من الله عليه.

ثم قال: « **ولو أن تعطي صلة الحبل** » فمن لا يجد حبلاً، وأعطيته قطعة من الحبل ليربط حقائبه ، لا تراها صغيرة. وكذلك « **ولو أن تعطي شثع النعل** » فإن وجدت من انقطع نعله ويريد أن يصلحه سريعًا ليستكمل سيره، أو سعيه، أو رميه للجمرات، أو غيره، فوقفت تصطنع له ذلك المعروف الحقير، إذا بالله جل وعلا يثيبك عليه.

وتتعلم من ذلك أمرين؛ الأول: أن تكون في كل أحوالك خيِّرًا، فلا ينفض حالك من خير تأتيه، والثاني: أن تصلح نيتك وقلبك وإخلاصك لله جل وعلا، في تقديم أوامر الله، تنتظر بها رحمة الله، ومغفرة الله، وجنة الله تعالى.

وكذلك « **ولو أن تنحي الشيء عن طريق الناس يؤذيهم** » وكثيرًا ترى ذلك هذه الأيام، فترى ما يمكن أن يعطل سيارة، أو أن يوقع طفلاً في الشارع، فماذا لو نحيت ذلك الشيء الذي تراه في طريقك تريد بذلك رحمة الله، وحتى لا يكون سببًا لأذاك أو أذى غيرك ، أو لضيقك ونفرتك، أو لأحقر من ذلك. وقد صح ذلك عن بعض

أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، أنه خرج إلى هذا الجذع الذي يعترض طريق الناس فرفعه، فشكر الله له، فغفر الله له [٧٥].

ثم قال: « **ولو أن تلقى أخاك ووجهك منطلق إليه** » وقد أصبحت هذه من الصعوبة بمكان ! أن يستبشر المرء في وجه إخوانه، أو أن ينطلق وجهه إليهم. وكأنه ملك عليهم ولا ينبغي أن يتنازل هذا التنازل الكبير بأن يبتسم في وجوههم ، وكأنه يعلمهم الأدب وحسن الأخلاق والمعاملة، بأن يكشر في وجوههم، وأن يقطب وجهه، وأن يكفهر وجهه لهم!

ماذا عليك إن واجهت إخوانك ووجهك منطلق إليهم ؟ إن هذا المعروف الحقير القليل، ينبغي ألا تفرط فيه، إن فرطت في القليل كان بداية للتفريط في الكثير والكبير.

ثم قال صلى الله عليه وسلم : « **وأن تؤنس الوحشان في الأرض** » والوحشان هو ذلك المغموم الذي وقع في شيء يهمه، ماذا عليك أن تؤنسه، أو أن تكلمه لتخفف عنه أو أن تبشره وتخفف آلامه، لعل الله تعالى أن يرسل إليك من يؤنسك عندما تقع فيما يمكن أن تحتاج فيه إلى ذلك الإيناس من الله تعالى. والشرع لا يقصد أن تخفف عنه فقط، وإنما أن تبحث عن سبب غمه فتنفسه، أو تزيله بالكلية، ليزيل الله تعالى غمك، وينفس عنك كربك، ويرفع عنك همومك التي أنت فيها.

---

(٧٥) رواه البخاري (٦٢٤) ، ومسلم (٥٠٤٩) ، ولفظه: (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صلى الله عليه وسلم– قَالَ: « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ؛ فَأَخَّرَهُ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ »).

إن هذه المعاني تبين لك قيمة المعروف ولو كان صغيرًا، وقيمة البر في هذا المعروف **ألا تستصغره**، فهذه الأعمال الواردة في الحديث يراها الناس من المعروف المحتقر القليل، ولكن ذلك يبين قيمة التواضع والذلة للمؤمنين، بأن يقوموا بمثل هذه الأعمال التي تبين اجتماعهم وألفتهم ومودتهم فيكون ذلك سببًا في تنزل رحمة الله تعالى، ورفع الشقاق، وأن يسود فيهم ما يكون سبب خيرهم وبرِّهم، وما يكون سبب نصرهم ورفعتهم، وبقائهم وانتشار دينهم، وعودة دولتهم ورفع رايتهم - كما رأينا أصحاب النبي ﷺ وليستعدوا بذلك كله أن يكونوا أهلًا أن يدخلوا على الله تعالى في بيته، وأن يحملهم الشوق والحنين إلى بيت الله تعالى.

النقطة التالية أن المرء كلما جاهد المرء نفسه على التحقق بأعمال المعروف، **وصل إلى المرحلة الأعلى في طريق حسن الخلق**.

تفريج الكربات

وهي التي ذكرها النبي ﷺ في الحديث في قوله: « **من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة** » (٧٦) وفي الرواية الأخرى: « من

(٧٦) رواه مسلم (٧٠٢٨) ولفظه: (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ »).

فرج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه » [٧٧]، فوصلت إذًا إلى هذه الدرجة التي تجاهد إلى أن تصل إليها، **أن الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه،** فإذا ما وصلت إلى هذا الحال استصغرت كل معروف يمكن أن تأتيه، واستقللت كل بر قد تنازلت عنه أو ضحيت به؛ لأنك ساعتها علمت أن الله تعالى في عونك، فإن فرَّجت، فرَّج الله عنك، وإن نفَّست، نفَّس الله عنك، فالجزاء من جنس العمْل.

والتنفيس إرخاء الحبل حتى يستطيع المرء أن يتنفس مما هو فيه من كرب، والتفريج أن يرفع عنه الكُربة كلها، من أولها إلى آخرها، حتى يعود إلى العافية والسلامة، وحتى تنزاح عنه همومه وكربه وما وقع فيه من آلام .

فلما قال: « **والله في عون العبد** » كان معنى ذلك: أنك بقدر عونك لإخوانك، بقدر وقوفك معهم، ومشيك إلى القيام بمصالحهم، بقدر ما تُفرج وتُنفس وتفعل ما أمر النبي به صلى الله عليه وسلم من حقوق تبذل فيها مشقة النفس والمال والجهد والوقت، بقدر ما تُحصل من الله تعالى من عون.

إن ما تريد من عون من الله جل وعلا إنما تحصله بكونك في عون إخوانك، فإن ارتفع عونك لهم ارتفع عون الله لك، إن زاد عونك لإخوانك زاد عون الله لك، وهو معنى

(٧٧) أخرجه الخطيب (٥٢/١٢) . والطبراني فى الأوسط (٣٨٦/٤ ، رقم ٤٥٠٤) ، وقال الهيثمي (١٩٣/٨) : فيه العلاء بن سلمة بن عثمان وهو ضعيف . والديلمى (٥٢٨/٣ ، رقم ٥٦٥٢).

أنه متى بذلت شيئًا زائدًا لله تعالى فإنه يعطيك أفضل منه وأزيد وأجل وأعظم منه سبحانه وتعالى ، هذا ما تنتظره في الدنيا أيها المسكين !

إن أعطيت مالاً أخلف الله عليك، وهو ما يعلمك إذا ذهبت إلى الحج أن تعلم أن نفقة الحج هذه مخلوفة عليك، يخلفها الله تبارك وتعالى على منفقها بسبعمائة ضعف، ليس ضعفًا واحدًا ولا ضعفين، وإنما هذه الأضعاف المضاعفة من الله جل وعلا، فمتى أنفقت دينارًا أو درهمًا إذا بهذا الدينار أو الدرهم يعود عليك في الدنيا بأضعاف مضاعفة، وإذا رأيت ثوابه في الآخرة كدت أن تنفق مالك كله أو وقتك كله لما ترى من ثواب الله، ولما ترى من عطاء الله تعالى، ومن جزيل شكره لك وإحسانه بك سبحانه وتعالى.

وقوله :« **والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه** » ينبغي أن نلاحظ فيه معاني مهمة، فنقول: ماذا نفهم من أن يكون الله جل وعلا في عونك حال كونك في عون إخوانك؟ نفهم من ذلك أن الله جل وعلا عندما تكون في عونهم بالمال، فالله هو الذي يرفع عنك البخل والشح والحرص، وهو الذي يمدك بالمال جل وعلا، هو الذي يزيدك منه، وهو الذي يخلف عليك به جل وعلا، وهو الذي يشرح صدرك لما تأتي به من أعمال.

المعنى التالي **أنه حال وقوفك في عونه إخوانك، الله جل وعلا يكون في عونك**، فكأنه يقول لك: إن ما تبذل من عون، وما تدفع من مال، وما تنفق، وما تتحمل من مشقة، الله حال هذا العمل الذي تقوم به يكون في عونك، حال مشقتك وتعبك وجهدك

يكون في عونك، فحينئذ تكون بالله تعالى، **فلا تستثقل شيئًا ؛ لأنك إنما تقوم به بعون الله تعالى لك، لا تستكثر شيئًا لأنك تقوم به بعون الله تعالى لك، فهو في عونك حالها.**

ويتعلم المرء من ذلك، أن المشقة التي تبذلها يخففها عنك ربك، ويعينك عليها، ولا تجد مغبتها وصعوبتها، وفي نفس الوقت الله جل وعلا - مع أنه هو الذي يعينك - هو الذي يثيبك عليها أعظم مما أعطيت، وأعظم مما أنفقت، وأعظم مما بذلت! ماذا تريد حينئذ، حتى تمتنع عن أن تقوم بهذه الأعمال من أعمال البر، وأن تسارع إلى هذه الأعمال من أعمال الإيمان ترجو بها رحمة الله جل وعلا ؟!

إذًا علمت هذا الحال فانظر ماذا قال لك النبي صلى الله عليه وسلم أيضًا : « **من فرج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة** »، وهذه الوحيدة في ذلك الحديث التي قال فيها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: « **فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة** » لم يقل فرج عنه كربة من كرب الدنيا والآخرة، كما ذكر في بقية جمل الحديث؛ حيث قال: «**ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة** » ، فكل أحد يمكن أن يحتاج في الدنيا إلى من ييسر عليه شيئًا، أو من يستر عليه شيئًا، ولا ينفك أحد أن يقع في مثل ذلك، أما كرب الآخرة فهي الأهم، وهي الأصعب، وهي التي يمكن أن توقع المرء في شدة المحن والبلاء والمصائب، التي لا فكاك منها.

فالدنيا إن مرت بكربها فقد انتهت، وفي نهاية المطاف يرجع المرء إلى الله تعالى، رأى كربًا، أم لم ير كربًا، فقد مرت الدنيا. أما كرب الآخرة فهي أعظم الكرب وأهمها

وأشدها كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم. وأنك أيها المسكين - السامع والمتكلم - تود أن يرفع الله عنك أهم الكرب التي تنزل في الآخرة.

وتنزل كرب الآخرة على قدر مصائبنا في الدنيا، وما فعلناه في أنفسنا وإخواننا، وما فعلناه في ديننا وسنتنا، وما قصرنا فيه في الظاهر والباطن، إلى آخر هذه الأمور التي يعلمها كل أحد من نفسه، فهي تنزل على أساسها الكرب في الآخرة، فكيف النجاة ؟

جعل الله لهذه النجاة طريقًا في الدنيا، يفرج به هذه الكرب في الآخرة، **بأن تفرج عن إخوانك كربًا من كرب الدنيا، لا أن تنفس فقط، وإنما تقوم بتفريجها ؛ بأن ترفع الكربة من أصلها، كأن لم يكن به كربة به ولا بلاء،** كأن لم يكن به هم ولا غم ولا حزن ولا ضيق ولا نكد.

فأنت تجد من تنكدت عليه دنياه، وتنكدت عليه معيشته، وأصيب بالغموم والهموم التي أحاطت به، ولم ير لها فرجًا، إذا بهذا المؤمن الذي ينتظر أن يفرج الله عنه كرب الآخرة، قد أرسله الله تعالى ليكون في عون نفسه أولاً، وليفرج به عن نفسه هو كرب الآخرة، فإذا به ينفس عن إخوانه كرب الدنيا. فرحمه الله جل وعلا باستعماله في ذلك، وأرسل له ذلك المكروب ليرفع عنه كرب الدنيا، فيُرحم هو في كرب الآخرة.

والنقطة الثانية التي لا بد أن تهتم بها ، أنك لا تنتظر إخوانك حتى يشكون إليك ما هم فيه من كرب؛ لأنه « **من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم** »[٧٨]، **فإن اهتممت**

(٧٨) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧/٢٧٠ رقم ٧٤٧٣) ولفظه: (عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من لم يهتم بأمر المسلمين؛ فليس منهم، ومن لم يصبح ويمس ناصحًا لله

بنفسك، وأغلقت نفسك على نفسك، وأغلقت بابك على نفسك، وأغلقت مالك على نفسك، وأغلقت وقتك وجهدك على نفسك، ثم تنتظر أن يرحمنا المولى سبحانه وتعالى وأن يرفع البلاء، وكلٌ يقول: نفسي نفسي، مالي مالي، وقتي وقتي، ليس هناك وقت، ليس هناك جهد، ليس هناك مال، ليس هناك ما أستطيع أن أفعله !

تذكر أنك تضيع وقتك فيما لا فائدة فيه في الدنيا والآخرة، **وأنك تشغل نفسك بالتوافه من الأمور** وتشغل يومك بالنوم وغيره من الأمور التي تدعو للكسل وإلى تأخير أعمال الآخرة، والتأخر عن قافلة المؤمنين في السعي إلى الله تعالى، فهل هذا استغلالك لوقتك الذي تبخل به على إخوانك؟ لذلك ينبغي تصحيح هذه الأحوال، وتقديم كل ما تستطيعه، ولا تبخل ولا تتكاسل، لأن الله يكون في عونك عندما تقوم بعون إخوانك، وحينئذ يبارك وقتك ويخلف جهدك ومالك سبحانه وتعالى.

إن المؤمنين اليوم قد اجتهدوا ويجتهدون وما زالوا يجتهدون في كيف يجفون إخوانهم ولا يقومون بحقوقهم؟ كيف لا يقومون بهذه الحقوق القليلة التي أمر الشرع بها من الأخلاق الحسنة؛ في أن يزور مريضًا يواسيه، أو أن يفرح لفرحه، وأن يحزن لحزنه، وأن يقوم بهمه، وأن يقف بجواره فيما نزل به، وأن يسارع إلى أن يكون مثله فيما يقوم له به من أعمال، وأن يقضي له الحاجات؛ لأن النبي ﷺ قد ذكر ذلك: « **لأن يمشي**

ولرسوله ولكتابه ولإمامه، ولعامة المسلمين؛ فليس منهم) وقال الإمام الطبراني: لايروى هذا الحديث عن حذيفة إلا بهذا الإسناد تفرد به عبد الله بن أبي جعفر الرازي.

في حاجة أخيه خير له من أن يعتكف في مسجدي هذا عشر سنين » (79)، والحال اليوم على عكس ذلك، واسمع ما شئت من تقصير، وما شئت من تفريط، وما شئت من تجاهل، وستجد هذا هو الواقع الأليم الذي يعانيه المؤمنون اليوم.

إن مرض أحدهم ينتظره إخوانه حتى يأتي المسجد ويقال له: شفاك الله وعافاك ! لا بد أن يرى المرء حاله ويعلم أين هو من قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه** » حتى لا يكون طريقك في هذه الأحوال إلا أن تكون في عون إخوانك لترى المدد والعون من الله تعالى.

لذلك ينبغي أن تبحث عن أحوال إخوانك، فتتفقد أحوال المغموم والمهموم، وتتفقد أحوال من لم تره من إخوانك، فتبحث عنهم وتقوم لهم بمثل ما تحب أن يقوموا لك به أنت، **لا تنتظرهم حتى يقفوا موقف الذلة والمسألة**، أو أن يقفوا موقف القلة والضعف والمهانة، ينتظرون أن يفرج عنهم أحد، أو أن يرفع عنهم أحد، أو أن يقرضهم أحد، أو أن يواسيهم أحد، **لا**، وإنما أنت تقوم بذلك كما كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يفعلون.

(79) أخرجه الطبراني في الأوسط (221/7 ، رقم 7326)، وقال الهيثمي (192/8) : إسناده جيد . والبيهقي في شعب الإيمان (424/3 ، رقم 3965) ، والخطيب (126/4) وقال : غريب . ولفظه: (من مشى في حاجة أخيه وبلغ فيها كان خيرًا من اعتكاف عشرين سنة، ومن اعتكف يومًا ابتغاء وجه الله جعل الله بينه وبين النار ثلاثة خنادق أبعدهما بين الخافقين).

كان أبو بكر وعمر وغيرهم يتفقدون أصحاب النبي ﷺ، ويقومون بشئونهم، وقصة المرأة العمياء مشهورة في ذلك. فقد كان عمر يتفقد أحوال المسلمين - في زمن النبي ﷺ - فرآها على هذا الحال، مقعدة كفيفة تستحق الشفقة والإحسان، فكان عمر - على جلالة قدره - يقوم لها بحاجاتها، فينظف لها خيمتها، ويحضر لها ماءها وطعامها، ويخرج عنها الأذى، حتى إذا جاء يومًا ليفعل ما يفعله بها كل يوم، إذا بالخيمة وقد تنظفت، وأخرج منها الأذى، فسألها من الذي فعل ذلك، قالت: الرجل الذي يأتي كل يوم ! فتعجب، وجاء رضي الله عنه في اليوم التالي مبكرًا واختبأ ليرى مَنْ الذي فعل ذلك قبله ؟ ومن الذي قام به؟ فإذا به أبو بكر رضي الله عنه.

وقد كان القيام بمصالح الإخوان من عادة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم والسلف الصالحين أيضًا، يقول مجاهد – وهو من أئمة التابعين، وتلميذ ابن عمر رضي الله عنهما – صحبت ابن عمر في السفر لأخدمه فإذا هو يخدمني، وكذلك كان عبد الله ابن المبارك في أسفاره(٨٠)، فكان يصوم ويطعم أصحابه أطايب الأنواع من الطعام والشراب !

---

(٨٠) هو العالم الرباني المجاهد شيخ الإسلام عالم زمانه وأمير الأتقياء في وقته: عبد الله بن المبارك أبو عبد الرحمن، كان من كبار التابعين، قال سفيان: إني لأشتهي من عمري كله أن أكون سنة واحدة مثل عبدالله بن المبارك فما أقدر أن أكون ولا ثلاثة أيام.

وقال الحسن البصري[٨١] لبعض إخوانه: قوموا إلى فلان فاقضوا له حاجته، ثم مروا على ثابت البناني فخذوه معكم، فمروا على ثابت في المسجد فقال: أنا معتكف، فرجعوا إلى الحسن البصري وقالوا له إنه يقول إنه معتكف، قال ارجعوا إليه فقولوا: يا أعمش **ألا تعلم أن مشيك في حاجة أخيك أفضل من حجة بعد حجة**، فذهبوا إليه وقالوا له ذلك، فقطع اعتكافه وخرج ليقضي حاجة أخيه.

وكان ذلك قول ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه إلى النبي ﷺ « **من مشى في حاجة أخيه كأنما اعتكف في مسجدي هذا عشر سنين**»[٨٢]، وعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: **«سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ قُلْتُ فَأَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ قَالَ أَعْلَاهَا ثَمَنًا وَأَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا قُلْتُ فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ قَالَ تُعِينُ ضَايِعًا أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقَ قَالَ فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ قَالَ تَدَعُ النَّاسَ مِنْ الشَّرِّ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ تَصَدَّقُ بِهَا عَلَى نَفْسِكَ»**[٨٣].

---

(٨١) هو الإمام الفقيه المشهور، أحد التابعين الكبار الإجلاء علمًا وعملًا وإخلاصًا، قال إبراهيم بن عيسى: ما رأيت أطول حزنًا من الحسن، وما رأيته قط إلا حسبته حديث عهد بمصيبة، وقال مسمع: لو رأيت الحسن لقلت: قد بث عليه حزن الخلائق. وقال يزيد بن حوشب: ما رأيت أحزن من الحسن وعمر بن عبد العزيز، كأن النار لم تخلق إلا لهما.

(٨٢) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٤/٨)، وقال فيه مسكين بن سراج وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع الصغير (١٧٦)، وقال في صحيح الترغيب (٢٦٢٣): حسن لغيره.

(٨٣) رواه البخاري (٢٥١٨) كتاب العتق، باب أي الرقاب أفضل، ومسلم (٨٤) كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال.

الأمر التالي الذي ينبغي أن تعلمه، **أن عون الله تعالى لك يزداد بزيادة عونك لإخوانك**، ومن ثَمَّ قال ﷺ أيضًا: « **أفضل دينار ينفقه الرجل، دينار ينفقه على عياله ودينار ينفقه على دابته في سبيل الله، ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله** »[(٨٤)]، فهذه أحسن الدنانير عند الله تعالى، وتعلم كذلك أنك إن أنفقت مالًا قليلًا عاد عليك المال الكثير من عند الله تعالى؛ لأن الله تعالى أكد ذلك بقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥] وكذلك من أنفق وقتًا، أو جهدًا.

ونحن هذه الأيام قد عكسنا هذه القضايا، أنه لا يجد وقتًا لإخوانه ليزورهم، ولا يجد وقتًا ليقضي لهم حاجتهم، أو إن كان هو في حاجة قدم حاجته على حاجتهم، وتركهم يخبطون رءوسهم في الحائط أو يتوسلون ويبكون، أو يشكون ويتضرعون، ولا يواسيهم ، ولا ينظر إليهم، ولا يلتفت إليهم، ويغفل عن أن هذا التقصير لا يكون سبب عون الله ومدده أبدًا، ولا يبالي لهذه المصيبة، وينتظر هؤلاء ترك عون الله لهم، وعدم رفع درجاتهم، وبعدهم عن النبي صلى الله عليه وسلم، وسيبقون كما هم، عالة على العمل للدين وعائق لرفع راية الإسلام.

علمت إذًا ما ينبغي أن يقوم به المسلمون من الاهتمام بأمر إخوانهم، حتى ولو كان في الدائرة القريبة منك، ثم تتوسع بعد ذلك في البذل، ولا تخف من وقت يضيع، ولا

---

(٨٤) رواه مسلم (٩٩٥) كتاب الزكاة، باب فضل النفقة على العيال والمملوك.

من مال ينفق، ولا من جهد يتبدد، كل ذلك عون الله الذي أرسله لك، كل ذلك عون الله الذي يثيبك عليه في الدنيا والآخرة، كل ذلك عون الله الذي يكون في عونك ما دمت على هذا الحال.

تحمل الأذى

ومعناه أن المرء لا يكون حسن الخلق إلا أن يتحمل أذى الخلق، فيتحمل أذاهم في القول وفي الفعل، في الظاهر وفي الباطن، وفي الإشارة وفي السخرية، وفي الغيبة وفي النميمة والتطاول، وألا يدفع السيئة بالسيئة بل يعفو ويصفح.

وفي هذه الأيام، خذ من هذه الأخلاق ما شئت، من الذي أساء إليه أحد فلم يتضايق منه؟ ومن الذي أساء إليه أحد فلم يرد عليه الإساءة؟ ومن الذي أساء إليه أحد فلم ينتظر أن يوقع به، ومن الذي أساء إليه أحد فلم يقاطعه ويتغير له، ولو وقع في المصيبة لم يقف إلى جواره؟ ومن الذي أساء إليه أحدٌ في الظاهر أو الباطن ولم ينتقم منه، ويظهر غله وحقده، فإذا لم يتمكن من ذلك، بقي الغل والحقد في قلبه ينتظر التشفي في وقوع المكروه به، وفي نفس الوقت هو ضائق ذرعًا لا يود أن يراه، ولا يود أن يكلمه، وكلما تذكره ورآه تذكر السوء والمعصية، ووقع في الخلق السيئ؟!

ولننظر في هذه الآيات التي تبين ذلك الحال في قوله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝٩٦ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٦، ٩٧]، والآية الأخرى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ

أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] وكان المتوقع للآية: (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالحسنة) أليس كذلك؟ ولكن المولى جل وعلا قال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، أي: بأحسن الحسنة، والسياق أن يكون الكلام (ادفع السيئة بالحسنة) ولكن المولى جل وعلى قال ادفع بما هو أحسن من الحسنة، لا بالحسنة فقط. وجزاء ذلك: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ ولما كانت هذه منزلة عالية، لم يكن الشيطان ليترك أصحابها ليتبعوا النبي ﷺ صاحب الخلق الكريم، بأن يبذلوا الندى وأن يتحملوا أذى الناس، لذلك قال المولى جل وعلا في الآية التي بعدها: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾

وذلك لأن الشيطان لن يتركك أن تبذل الندى، ولكنه سيأتي ليقول لك: هذا لا يستحق، وليس أحد بأفضل من أحد، وكان لابد أن يفعل كذا فلم يفعل فلا بد أن تعاقبه على ذلك وقد وقع في الموقف الفلاني ووقفت إلى جواره ثم لم يؤثر فيه ذلك، وعندما أصابك شيء لم يقف إلى جوارك، ولم يسأل عنك، ولمَّا مرضتَ لم يعدك، فلا تسأل عنه، ولا تعطه، ولا تزرْه، ولا تقف بجواره، ولا تقرضه، ولا كذا، ولا كذا.

والأسوء من ذلك كله أن يأتي المرء فيقول إنه يفعل ذلك كله لدين الله تعالى، ليس لنفسه وإنما غضبًا لله جل وعلا، وإخلاصًا لله تعالى في أنه يفعل ذلك تعليمًا لأخيه وإرشادًا له، وهذا كله من تلبيس الشيطان، فالمرء الذي يقول أنه يفعل ذلك غضبًا لله جل وعلا إنما يقع في مصيبتين:

الأولى: ادعاء الإخلاص. والثانية: أنه يزكي نفسه، من الذي يدعي أنه مخلص في أن ينتقم لله تعالى؟ بدليل أنه لو وقع فيه غيره لم يعاقبه بمثل ذلك، فلو وقع هذا المنكر من ولده أو من قريبه لا يعاقبه هذا العقاب، أو لو وقع هذا المنكر من نفسه هو لا يعاقب نفسه هذا العقاب الذي يود أن ينزله بغيره، فيتسامح مع نفسه، ولا يتسامح مع غيره في مثل ذلك!

انظر إلى ما ذكره أنس ﷺ يبين به جانبًا مضيئًا من أخلاقه ﷺ المعظمة، يقول: «**خدمتُ النبيَّ ﷺ عشر سنين، ما قال لي أفٍّ قط، ولا قال لشيء فعلتُه لم فعلتَه، ولا لشيء تركتُه لم تركتَه، وكان لا يغضب لنفسه قط، وإنما يغضب إذا انتُهِكت حرمات الله تعالى، فكان لا يقوم لغضبه شيء**»[٨٥] وهو الحال الذي ينبغي أن يتطلع إليه أهل الإيمان، **ألا يغضبوا لأنفسهم، ولا يكون تطلعهم إلى تعظيم ذواتهم، وأن يتعززوا على المؤمنين**، فيقول القائل: ما كان ينبغي لأحد أن يكلمني بهذه الطريقة، وكيف أطلب شيئًا من أحد ولا يفعله؟ وكيف يحدث لي هذا الحادث ولا يسألوا عني؟ ثم إذا حدث من امرئ خطأ في حقهه، قيل: كيف يخطئ؟ سوف أخطئ في حقه كما أخطأ في حقي! علاوة على ما يزيد من سوء الظن والقطيعة والغيبة والنميمة ووقوع المفاسد التي يزكيها الشيطان حتى تكون سبب تفرقة المؤمنين، وسبب نزول البلاء عليهم، ورفع البركة والرحمة من بينهم.

---

(٨٥) رواه البخاري (٣٥٦١) كتاب المناقب، باب صفة ﷺ، ومسلم (٢٣٠٩) كتاب الفضائل، باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا.

المهم فيما ذكرنا أن نتعلم كيف نكون على حال النبي ﷺ في هذه الأمور: من العفو عن المظالم، ومن أن يصل من قطعه، وأن يعطي من حرمه، وألا يقابل السيئة بالسيئة، وأن يكظم غيظه، وأن يحلم على من تطاول عليه ويتحمل أذاه، وأن يكف أذى نفسه وعدوانها وظلمها عن غيره، حتى ولو كان بالحق، لأن هذه الدرجة إنما تنال بكف الأذى عن غيره ولو كان حقًا، **لأنك إن أساء إليك أحدٌ فرددت ذلك بأن تسيء إليه، صرت مثله**، وإذا ظن بك السوء وظننت به السوء كنت مثله في ذلك، ثم أنك تطاولت عليه واستهزأتَ به، وسخرتَ منه، وكان كلامه معك سببًا لاحتقاره وازدرائه والتحقير من شأنه، فأي درجة تنتظر من قربك للنبي ﷺ ومحبته؟ ومن ثقل ميزانك وزيادة حسناتك؟

وحال النبي ﷺ في هذه الأمور مشهور، فقد أتاه أعرابيٌّ وجَبَذه من ردائه حتى أثَّر في عنقه الشريف ﷺ وهو يقول: أعطني من مال الله الذي ليس مالك ولا مال أبيك [٨٦]، لم يزد على أن تبسم ﷺ، فهو لا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح. وظني أن أحدًا منَّا لو مُسك من ردائه وجرح في عنقه وقيل له أعطني من مال الله الذي ليس مالك ولا مال أبيك، لم يكن لينته اليوم إلا بمصيبة، أوبأن يذهبوا جميعًا إلى القسم !

(٨٦) البخاري -٥٣٦٢- (١٨/١٢٤) ومسلم -١٧٤٩- (٥/٢٨٠)، ونصه: عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: "كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ, فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ, فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الْبُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ, ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ, مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ, فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ثُمَّ ضَحِكَ, ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ» .

وكذلك لَمَّا جاءه اليهودي فقال: أريد أن أعلم وصفا في النبي ﷺ وهو أنه **لا يزيده جهل الجاهل إلا حلمًا**، فجاء هذا اليهودي وأغلظ للنبي ﷺ القول، حتى قام عمر رضي الله عنه يقول: دعني أضرب عنقه، فقال له النبي ﷺ: «**لم نكن في حاجة لمثل هذا منك ولكن أن تأمرني بحسن الأداء وتأمره بحسن القضاء**»[87].

ولما قال الأعرابي للنبي ﷺ: «**اعدل فإنك لم تعدل. قال له النبي ﷺ: ويحك، من يعدل إن لم أعدل، خبتُ وخسرتُ - أو خبتَ وخسرتَ - إنْ لم أعدل**»[88]، فكانت تلك ردوده وكان ذلك كظمه للغيظ مع تمكنه وقدرته أن ينزل بهم أشد العقاب ﷺ، ومع ذلك رأينا أنه لم يكن ليغضب لنفسه، لأنه لو كان كذلك ما كان نبيًا، كيف يكون نبيًا وكلما أساء إليه أحد عامله بالإساءة، وكلما تطاول عليه أحد تطاول عليه، وكلما أذاه أحد رد الأذى بالأذى؟ لم يكن ﷺ كذلك ولكن كان خلقه القرآن: ﴿ **ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ** ﴾.

وقد ورد في الحديث، أنه لما قال له الأعرابي أفعل كذا قال ﷺ: «نعم، وأقتص منك؟ قال الأعرابي: لا. فضحك النبي ﷺ وقال: لم؟ قال الأعرابي: لأنك لا تكافئ السيئة بالسيئة »[89].

(٨٧) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٤٢)، وقال: رجاله ثقات.

(٨٨) رواه البخاري (٥١٩١)، رواه مسلم (١٠٤٦).

(٨٩) أورده البيهقي في دلائل النبوة (١/ ٢٨٦)، وقال: له شواهد تشهد له بالصحة.

بذل الندى

وذلك لأن المرء إذا قاطع أحدًا منعه نداه، يعني: منعه جوده وكرمه وضيافته، ومنعه أن يقرضه، أو أن يعوده أو أن يفعل له شيئًا، وذلك يخالف قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، فتكون علاقتك بالخلق على الإحسان إليهم، بأن تبذل الندى من كلامك ومن وجهك ومن مالك ومن وقتك وجهدك، وأن تبذل كرمك وجودك لهم، إذ كلما كان المرء أكثر جودًا كان أكثر تشبهًا بالنبي ﷺ فقد كان: «**أجود الناس**»[٩٠]، وكان **أحسن الناس خلقًا**»[٩١]. وإلا لم تكن مخلصًا في علاقتك إذ قطعت عنهم عطيتك إذا أخطأوا في حقك، فلم يكن نداك لله تعالى.

كف الأذى

فيكف المرء الأذى عن غيره، وإذا وقع له الأذى من إخوانه أو من غيرهم، كان متحملًا لهذا الأذى، لا يرد الأذى بالأذى ولا السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح.

---

(٩٠) رواه البخاري في صحيحه (١٩٠٢)، ومسلم (٢٣٠٧).

(٩١) رواه البخاري في صحيحه (٦٢٠٣)، ومسلم (٢١٥٠).

الإحسان إلى من أساء إليك

وذلك لأنه لما جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال له: «إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ. فَقَالَ: لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ، وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ»(٩٢).

وكان الظن في ذلك أن يقول له أمرين: إما إن يجتنبهم، وإما أن يرد الإساءة بالإساءة، ولكنه ﷺ قال له: «**فإنك تسفهم الملّ**» والملّ هو الرماد الحار، مثل بقايا الرمل المحترق، ومعناها كأنك تقول: تسفهم التراب، مادمت تكلمهم بالرفق واللين حين يتطاولون عليك ويشتمونك، ويسيئون إليك! وحينما يحرمونك وتعطيهم أو حين تصلهم ويقطعونك.

وهذه المسألة التي لا يتصورها المؤمنون اليوم من أنه إذا شتمه أحد كظم غيظه فلم يشتمه، بل يحسن إليه، وإذا أساء إليه وقطعه وصله، وسبيل ذلك أن يحذر المرء من كيد الشيطان في هذه المسألة، لأن الشيطان لن يتركه ولكن يأتيه ليقول: طالما أنك هكذا سيتصور أن هذا ضعف منك، **وليس من كرامة المرء أن يفعل ذلك، بل هذا انتهاك لكرامة المرء**، ثم ينزغ الشيطان ويقول: لا تسكت عليه، هو يستحق سيئ الرد لأنه يحس أنك ضعيف لا تستطع الرد عليه، ويكون دأبه التطاول عليك والسخرية منك !

---

(٩٢) رواه مسلم (٢٥٥١) كتاب البر والصلة والآداب، باب رغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر فلم يدخل الجنة.

النبيُّ ﷺ لم يقل ذلك فقط، ولكن قال: «ولا يزال لك عليه من الله ظهير» **وإذا بنا نستبدل بظهير الله تعالى وعونه ونصره نصر أنفسنا والغضب لها**، لو كان هناك الإيمان الكافي والتعلق بالله، وحسن الظن به ﷺ في أن يكون المرء في حماية الله تعالى، وفي نصر الله تعالى، وأن المرء مهما فعل من هذه الأخلاق الحسنة فإنه الله جل وعلا لن يُسيئه أبدًا، ولن تنزل كرامته أبدًا، ولن يكون هو المُستخف المستهزئ به، ولو كان هناك الإيمان الوثيق لم يكن ليتخيل أن اتباعه أمر الله تبارك وتعالى وسنة النبي ﷺ سيكون سببًا في إهدار كرامته وقلة قيمته!.. لا... ولكن كما قال النبي ﷺ: «**ما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه، وما ازداد عبد بعفو إلا عزًّا**»[٩٣] وإذا لم تزدد به عزًّا في الدنيا فأنت معتزٌّ به عند الله تعالى، كريم عليه بهذه الأخلاق الحسنة، وتكون أنت سببا في أن يفشي ذلك الخُلق الحسن بين الخلق، ويرفع درجتك في الأولى والآخرة، إن كنت مخلصًا تريد وجه الله تعالى بذلك.

لذلك قال النبي ﷺ: «**يا عقبة إن أفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة أن تصل من قطعك وأن تعطي من حرمك وأن تعفو عمن ظلمك**»[٩٤] . ونحن نذكرها لتكون دليلًا على سوء الأخلاق هذه الأيام. **فمن الذي أعطيته، فلمَّا طلبت منه منعك ذلك ثم وصلته وأعطيته؟ من الذي أذاك فعفوتَ عنه؟** ولكن يأتيك الشيطان ليقول لك: لا ليس

(٩٣) رواه مسلم (٢٥٨٨) كتاب البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع.

(٩٤) أورده البيهقي في شعب الإيمان (٦/٢٨١١)، وقال: مرسل حسن. وقال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٣/٦١): أسانيده حسان.

أحدٌ أحسن من أحد، لقد فعل كذا وكذا، ولابد أن تفعل فيه كذا وكذا، ولا تنام الليل عندما يشتمك فلان، أو إن وقع في عرضك أو أنقصك حقك، أومنعك واجبًا من الواجبات التي تأتيها، إذا بك لابد أن تنتقم منه، وتبين نقصه وقلة أدبه، وتُعيره بما كان منه، وتبين له أنك يمكن أن تفعل فيه وأن تفعل فيه، وإذا فعلت فيه ذلك لم تنم وتطمئن حتى تأخذ بحقك - هذا الذي تظن- من هذه الأخلاق الرديئة!

وقد رأينا كيف **«كان رجل يشتم أبا بكر ويسبه وهو واقف مع النبي ﷺ، وأبو بكر ﷺ ساكت حتى انتهى الرجل فقال له أبو بكر: أنت، فقام النبي ﷺ لما رأى ذلك، وقال لأبي بكر: إن الله تعالى قد قيض ملكًا يرد عنك، فلما رددت عن نفسك ذهب الملك وجاء شيطان»**[٩٥]، مع أن أبا بكرٍ ﷺ لم يقل له إلا: «أنت» فقط!

وهذا يسوقنا إلى المعنى التالي الذي ينبغي أن يستحضره المؤمنون ليكون ذلك سبب حسن أخلاقهم، رارتفاع درجتهم في الدين، وهو معنى **الذلة للمؤمنين** وقال فيه النبي ﷺ: **«من أحبكم إليَّ وأقربكم سني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، الموطأون أكنافًا الذي يألفون ويؤلفون»**[٩٦] وهذه الرواية صحيحة، ومعناها الذين توطأ أكنافهم لإخوانهم، كما قال تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] والتعبير بالذلَّة يعني: **أقصى درجات التواضع والخضوع، ورد الإساءة بالحسنة، وكف الأذى، بل**

---

(٩٥) رواه أبو داود: (٤٢٥١) وسكت عنه، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣/٣٨٤): مرسل، وحسنه الشيخ ناصر الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٨٩٦).

(٩٦) رواه الترمذي (٢٠١٨) كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معالي الأخلاق، وقال: حديث حسن.

وتحمل الأذى، مع بذل الندا، والكرم والجود والإحسان، لا يتأخر في شيء من ذلك، ولا يرد فى خاطره أن هؤلاء لا يستحقون، وهؤلاء قومٌ فعلوا وفعلوا وفعلوا لنهى النبى ﷺ عن ذلك.

سخاوة النفس وسلامة الصدر والنصيحة لكل مسلم

وهذه خلاصة القول : فإنه كما قيل: «**ما وصل من وصل إلا بثلاث؛ بسخاء النفس، وسلامة الصدر، والنصيحة للمسلمين**» فما وصلوا بكثرة صيام ولا صلاة، فكلهم يصلون ويصومون ويتصدقون، ولكن من علا منهم وارتفعت منزلته إنما كان بسلامة الصدر، وبسخاء النفس، وبالنصيحة للخلق، وتأمل هذه الأخلاق لتكون بداية لما ينبغي أن يكون عليه المرء.

وأولها سلامة الصدر، وانظر إلى هذه القصة التي تبين سلامة الصدر التي ينبغي أن يكون عليه أهل الإيمان، قال النبي ﷺ:«**يطلع علينا من هذا الباب رجل من أهل الجنة**. فطلع رجل حديث عهد بالوضوء، ينفض شعره من وضوئه، قد علق نعله بشماله. وفي اليوم التالي قال: **يطلع علينا** رجل من أهل الجنة. **فخرج الرجل على نفس الحال التي خرج عليها في المرة الأولى**. ثم قال في اليوم الثالث: **يطلع علينا من هذا الباب رجل من أهل الجنة**. فإذا به نفس الرجل، وإذا بعبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ، يتتبع الرجل حتى وصل إلى بيته، وهي صفة الصحابة في محبة معرفة هذه الدرجات العالية والأخلاق الجليلة، وكذلك حرصهم على أن يتخلقوا بها وأن يتسابقوا فيها، فذهب له

وقال: قد كان بيني وبين أبي ملاحاة فهل تؤمنني أن أبيت عندك ثلاث ليال؟ قال: نعم، وألقى إليه عباءة لينام فيها، قال ﷺ: فتغطيت بها، ورمقته من بعيد، لأنظر ماذا يفعل في ليله، يقول لم أجده يفعل شيئًا، إلا أنه كان إذا قام من الليل يسبح الله تعالى ويكبره ويحمده ويهلله، حتى إذا كان وجه الفجر قام فصلى ركعات خفيفات، اثنتي عشرة ركعة لا بالقصير ولا بالطويل، ثم أخذ يدعو، قال: فتقللت عمله، فقلت له: يا عم ليس لك عمل غير ذلك، قال: لا إلا ما رأيتَ، حتى إذا توليت –ذهبت– ناداني، قال: **إلا أني لا أبيتُ ضاغنًا على أحد**»[٩٧]، قال فهذه التي لا تطيقها، والمعنى لا أبيت وفي قلبي شيء أحد، ولا أحسد أحدًا على ما أعطاه الله تعالى، فكانت هذه الخصلة هي التي كانت السبب منه في أن يبشر النبي ﷺ أنه من أهل الجنة، **أنه يبيت ليس في قلبه شيء لأحد**، ولا غش لأحد، ولا حسد لأحد، ولا بغي لأحد، ولا ظلم لأحد.

ولذلك قال النبي ﷺ يوضح هذا القول في أصحاب الجنة قال: «**ألا أدلكم على أفضل الخلق: صدوق اللسان، مخموم القلب**. قالوا: صدوق اللسان علمناه، فما مخموم القلب؟ قال: **التقي النقي الذي لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد**»[٩٨]، فهذه هي سلامة الصدر، لا أن تقول له: اعف عنه. فيقول: لا لن أعفو عنه، لن أسامحه، لن اتركه في الدنيا والآخرة، وسوف اعقد مظلمتي عند الله تعالى!

---

(٩٧) أورده المنذري في الترغيب والترهيب (٣٢/٤)، وقال: إسناده على شرط البخاري ومسلم. والحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٢٣١/٣)، وقال: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٩٨) أورده المنذري في الترغيب والترهيب (٣٣/٤)، وقال: إسناده صحيح. والحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١٨/٣)، وقال: إسناده صحيح.

لذلك **كان لزامًا أن يكون هذا المعنى سببًا في أن يصلح الناس فيما بينهم، وأن يكون ذلك سببًا لسلامة صدورهم وإزالة الشحناء والبغضاء من بينهم**، وأن يسارع كل امرئ إلى أن يكون قلبه هو القلب الذي يستحق هذه الرحمة من الله تعالى، فيكون ذلك سببًا لتآلف المؤمنين وتوادهم وتراحمهم، رفعًا للبلاء النازل والخطب الجليل الذي أحاط بأمة النبي ﷺ.

أما أن يبيت المرء وفي قلبه لكل أحدٍ حقدٌ وغلٌّ وضغينة وحسدٌ وشقاقٌ وخلافٌ وعراكٌ وشجارٌ وأن ينزل به غضب الله تعالى، وأن يرى فيه يومًا، فهذه هي النفوس المريضة التي لم تستشعر هذه المعاني من محبة الله تعالى، وهذه المعاني من سيرة النبي ﷺ المشرفة، فهذه النفوس لا تليق بحمل أمانة النبي ﷺ ولا بحمل هذه الشريعة التي حملها أولئك الأطهار من أصحاب النبي ﷺ فَمَن بعدهم.

والصفة التالية هي **سخاء النفس**، بأن تكون نفسه سخية بالعبادةوالطاعة، سخية في التعامل مع الخلق، ويبين ذلك هذا الحديث كما يقول النبي ﷺ: «**أنه كان رجل يداين الناس فإذا وجد معسرًا قال تجاوزوا عنه لعل الله أن يتجاوز عنا، يقول لصبيانه: اتركوا له هذا المال الذي أعطيناه إياه فقال الله تعالى: نحن أحق بالتجاوز منه، تجاوزوا عنه**»(٩٩) ونحن أحق بالتجاوز من كل أحد، فيتجاوز الناس، يتحابون ويتآلفون، ويكونون كالجسد الواحد انتظارًا لتجاوز الله وعفوه.

(٩٩) رواه مسلم (١٥٦١) كتاب المساقاة، باب فضل إنظار المعسر.

ولما كانت هذه السخاوه سبب وصولهم إلى الله تعالى، وجدتهم كذلك أيضًا في العبادة والصلاة **لأنه لا يصلح لحمل أمانة هذا الدين إلا هذه الأنفس السخية، وهذه السلامة في الصدور بين أهل الإيمان.**

والصفة الثالثة هي **النصيحة للمسلمين**، كما قال النبي ﷺ: «**الدين النصيحة. قيل لمن؟... حتى قال: ولأئمة المسلمين وعامتهم**»[100]، والمعنى أن يكون ناصحًا لهم كما ينصح لنفسه، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، فيكون رحيمًا لصغيرهم، موقرًا لكبيرهم، يفرح لفرحهم، ويحزن لحزنهم، ويدعو لهم بالخير، ويحب رفعتهم ونصرتهم على أعدائهم، ويحب ألفتهم واجتماعهم ومحبتهم، يأمرهم بالمعروف بالرفق واللين، ويقوم على مصالحهم ويخرجهم من الفساد حتى ولو كان ذلك سبب المشاكل في دنياه، وأن يؤتيهم ما يحب أن يؤتى إليه، فيعلم جاهلهم، ويرشد المبتعد منهم، وأن يسوق إليهم الخير، وذلك كله من النصيحة لهم لأن هذه النصيحة هي الدين.

والدرجة التالية هي قول النبي ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[101] وهي أن يحب أن يأتي الناس ما يحب أن يأتيه الناس له، وهي التي تضع هذا الحد الفاصل من معاني الأخوة التي ينبغي ألا يقل المرء في درجته عنها، لأن أكثرهم حبًا لأخيه هو أحبهم عند الله تعالى، ودليل هذه المحبة أن يكون أكثرهم

---

(١٠٠) رواه مسلم (٥٥) كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة.

(١٠١) رواه البخاري (١٣) كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ومسلم (٤٥) كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

اشتغالًا بشغلهم، أكثرهم تحقيقًا لمصالحهم وقيامًا بحاجتهم، وسعيًا في أن يخفف عنهم، فيكون عندئذ هو أحبهم إلى الله تعالى.

حسن الخلق معيار الإيمان

وهو المعنى الذي بدأنا به، وكان هو السبب في التفصيل في قضية حسن الخلق، وهو الذي ينبغي أن يتعلمه كل أحد: **أن حسن الخلق هو المعيار الذي يقيس به المرء إيمانه** فتخلقه بهذه الأخلاق الحسنة هو الذي يدل على صفاء النفس وعلى قربها ومحبتها للنبي ﷺ ويدل على أن هذه النفس لم تعد ممتلئة بهذه الأخلاق الرديئة السيئة من أخلاق الحقد والغل والحسد، ومن الغيبة والنميمة، وحب العلو والظهور، وكذلك حب الانتقام، وترك الحلم وكظم الغيظ والعفو عند المقدرة، كل ذلك لابد وأن يقيس به إيمانه، وأن ينظر فيه، هل حقق فيه هذه الشمائل أم لا، وإن لم يتحقق بها فقد فُتِحَ الباب في تلك الأيام من أيام البر ليكون سببًا في مجاهدة النفس عليها، وسببًا لتهذيب النفس بها، وسببًا لتغير الأحوال إلى الأفضل، لأن هؤلاء الذين ساءت أخلاقهم لا ينتظرون من الله تبارك وتعالى أن يقوي إيمانهم فضلًا عن رفع درجاتهم، قبل أن يجاهدوا أنفسهم على التحقق بهذه الصفات الحسنة التي جاء النبي ﷺ بها ليتمم مكارم الأخلاق، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] توجيهًا لأهل الإيمان ليتشبهوا به ﷺ.



الفصل الرابع:

الإتيان بآداب الشريعة كلها

والإتيان بآداب الشريعة كلها من الطاعات والتقرب إلى الله تعالى بكل القربات هو المعنى الثاني للبر، كما جاءت الآية في كتاب الله الكريم بقوله: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وهذه الطاعات لا تختلف باختلاف الأيام، وإنما إذا جاء موسم الرحمة والبر والأيام الفاضلة في الدنيا، ازداد العمل بهذه الطاعات، وأكثر المرء منها، **وجاهد نفسه على الإتيان بهذه الأعمال التي يقصر فيها في بقية الأيام** حتى يكون البر صفته الغالبة عليه في عامه كافة، وحتى يخرج من أفضل أيام الدنيا وقد غفر الله له، وقد أعطاه الله تبارك وتعالى سؤله، وقد رحمه الله تعالى، وتحقق له المرء بأعمال البر في نفسه، فيصير من الأبرار الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه وأثنى عليهم أحسن الثناء: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ [المطففين: ٢٢] في الدنيا والآخرة.

وقد بينت الآية أنواع البر الستة **والتي من استكملها فقد استكمل البر، حج أو لم يحج**، فإذا حُرم الحج فعليه أن ينظر في هذه الأعمال من أعمال البر وما الذي قصر فيه منها حتى يستكمله ليكون بذلك أهلا أن يفتح الله تعالى عليه مرة أخرى ليقربه إليه، وليصل إلى بيته وصولا إلى رب البيت ﷻ.

أولها: الإيمان بأصول الإيمان الخمسة: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَٰخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فلا يكمل الإيمان والإسلام حتى يؤتى بها كلها، وكذلك لا يكمل بر الحج بدونها.

والثاني: إيتاء المال المحبوب لدى المرء، بأن يؤتيه أولي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب، **وأن يعم هذه الأنواع كلها بالإحسان إليها، وأن يخرج من ماله المحبوب لنفسه** الذي لا يخرجه لأنه يحب أن يمتلكه أو يزيد منه، ولا يحب أن يفرط فيه أو ينقص، لا ولكن كما قال المولى ﷻ: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧]، يعني وآتى المال على حب المال والإمساك به والشح والحرص على أن ينفقه آتى هذا المال ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين كما ذكرنا في صفة النبي ﷺ لما قال: «**ما أحب أن يكون لي مثل أُحُد ذهبًا وتمرُّ عليَّ ثلاث إلا وأقول به هكذا وهكذا وهكذا**»[١٠٢]، عن يمينه وعن شماله ومن ورائه يوزع ذلك المال كله لله

(١٠٢) رواه البخاري (٢٣٨٩) كتاب الاستقراض، باب أداء الدين، ومسلم (٩٩١) كتاب الزكاة، باب تغليظ من لا يؤدي الزكاة.

تعالى مستيقنا أن الله تعالى سيكرمه بأحسن منه وأكثر منه وأعظم منه في الأولى والآخرة، وأنه بإنفاقه ذلك كما قال: «**أَنْفِق أُنفقْ عليك، أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالًا**»(١٠٣)، «**وما نقص مالٌ من صدقة**»(١٠٤)؛ لذلك كان النبي ﷺ هو أول من تحقق بذلك.

والآية الأخرى في ذلك هي قوله تعالى: ﴿**وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ**﴾ [الحج: ٣٥] وذكرت هذه اللفظة بالذات وهي الإنفاق من أموالهم؛ لأن الحاج إلا من رحم الله، ممسك على ماله، لا يريد أن ينفق منه شيئًا يخاف أن يسرق ماله يخاف أن يضيع منه شيء، يخاف إذا أراد أن يشتري شيئًا بعد ذلك لا يجد المال الذي يشتري به، أو إذا أنفق من ماله أن ينتهي، ثم يعود ليقترض من هذا، أو ليطلب من هذا، أو مما يحدث من هذه الأخلاق الشحيحة من تلك النفوس الرديئة اليوم، فحتى لو كان المرء موسرًا يمسك بماله لا يفرط فيه أبدا يضعه ليستدفئ لا يُخرج منه شيئا!

لذلك فقد أمرهم الله وبين لهم ووصاهم ﷻ بالإنفاق؛ **فإن الإنفاق في هذه الرحلة بالذات يخلفه الله تبارك وتعالى على هؤلاء المنفقين بسبعمائة ضعف**، لا يخافون مع الإنفاق شيئا، ولا يتخيل المرء الشحيح تلك التخيلات إلا من سوء ظنه بربه ﷻ ومن عدم يقينه وثقته في الله جل وعلا أنه ما أنفق لله ﷻ إلا وأخلف عليه إلا وزاده إلا

(١٠٣) رواه البخاري (٥٣٥٢) كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل، ومسلم (٩٩٣) كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف.

(١٠٤) رواه مسلم (٢٥٨٨) كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع.

وبارك له فيما أنفق من مال وجهد ووقت، **وقد ذكرنا أن الإنفاق ليس مقصورًا على أن ينفق من ماله فقط** وإنما أن تسعى بشدة ساقيك مع الملهوف، وأن ترفع بشدة ساعديك مع الضعيف، وأن تعين هذا الأخرق، وأن تحمل لذلك متاعه، وغير ذلك.

أمَّا هذه النفوس التي بخلت بما قد أعطاها الله تعالى، فهي كذلك تبخل على نفسها في صلاتها وعبادتها من باب أولى؛ لذلك تجد **البخلاء الحريصين كذلك ممسكين بخلاء في عباداتهم وقيامهم وذكرهم وإنفاقهم وبذلهم وقتهم وجهدهم لله جل وعلا، فهؤلاء لا ينفعون لدين ولا ينفعون لدنيا.**

وعندما ذكر النبي ﷺ أن المرء لا يحقر من المعروف شيئًا[١٠٥]، فإنما يطلب من المؤمنين أن يبذلوا أفضل المعروف، فإن لم يجدوا فلا يخلو أحد أبدًا من معروف ولو كان قليلًا محتقرًا في أعين الناس، فمن ثم يأمر النبي ﷺ أن يبذل زاده، وأن يكون طلق الوجه، **وأن يكون مسرورًا بما يبذل لا مسرورًا بما يأخذ، مسرورًا بما يعطي لا مسرورًا بما يشح ويبخل**، وإنما أن يكون مسرورا بما يجود؛ لأن الله سيجود عليه مسرورًا بما يجود؛ لأن ذلك في ميزانه فيكون مسرورًا لأن الله تعالى وفقه لذلك وحببه إليه وشرح صدره به، وتلك نعمة من الله تستحق أن يشكرها العبد عندما يرى الأشحاء البخلاء الحريصين، ويرى نفسه وقد اصطفاه ربه؛ لأن يكون من أصحاب الأخلاق العالية، ومن أصحاب الشيم الكريمة، والصفات الحسنة، فذلك يدعوه لأن يحمد ربه؛ لأن ربه بذلك قد رفع درجته وأعلى منزلته وأوشك أن يكون من القريبين من النبي ﷺ.

(١٠٥) رواه مسلم (٢٦٢٦) كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء.

وقد ذكر الله تعالى بعد ذلك الصبر، كما قال: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [الحج: ٣٥] لتفهم هذا المعنى، **فإنه لا يصبر على نفسه وعلى جميع الطاعات وعلى حبه للمال أن يدفعه وأن يبذله إلا هؤلاء الصابرون الذين ذكرهم الله تعالى:** فإن أكثر ما يصيب المرء أن يبذل ماله، وأن يخرج ماله منه إلى غيره، وأن يستفيد به غيره، تراه بذلك لا ينفقه إلا هذا الصابر على شح النفس، وعلى إمساكها وعلى مجاذبة النفس والهوى التي تقول له: أتدفع ذلك كله؟ أتعطي لهذا؟ شكله لا يستحق، لا تعطه لا تدفع له!! وكل ذلك إنما هو من هذه النفس الكزَّة التي إن أراد معروفا قالت له: مهلًا إلى أين؟

وثالثها: إقام الصلاة، وهي تلزم في الحج وغيره، وهي في الحج أشد لزوما، ورابعها: إيتاء الزكاة، فلا يكمل حجه ولا يكون مبرورا بدون إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، **فمن حج من غير إقامة الصلاة لا سيما إذا كان حجه تطوعا كان بمنزلة من سعى في ربح درهم وضيع رأس ماله وهو ألوف كثيرة**، وقد كان السلف يواظبون في الحج على نوافل الصلاة، حتى يأخذ الناس حذرهم ويهتمون لهذا الأمر، ولا يقصرون فيه، وكان النبي ﷺ يواظب على قيام الليل على راحلته في أسفاره كلها ويوتر عليها، فما ترك ﷺ قيام ليله في تلك الأيام، فهل يذهب المرء إلى الحج ليقصر في بقية أعمال الايمان؟ لا، وانما من بر الحج أن يستكمل كل أعمال الإيمان وكل وظائف الطاعة حتى يكون حجه مبرورًا.

وقد أشارت الآية لهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [الحج: ٣٥] والمولى تبارك وتعالى ذكرهما بالصفة، لم يذكرهما بالفعل لم يقل: ويصبرون على ما أصابهم ويقيمون الصلاة، وإنما قال: ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وكأن

أول ما يميز المؤمنين هو أنهم **ليسوا يقيمون الصلاة فقط، بل إنهم مقيمون لها في كل أحوالهم كأنها عادتهم ودأبهم**، وذلك لأنهم قد وصلوا إلى هذه الحالة من المحبة للصلاة والعبادة لله جل وعلا، حتى كأنهم مقيمون للصلاة على كل حال.

وهذا معنى «مقيمين»، أي صارت سجية ملازمة لهم ولم يذكر: يقيمون الصلاة؛ ليدل بها على أن هؤلاء المخبتين قد وصلوا إلى هذه الدرجة من محبتهم للصلاة ومن إقبالهم على الله جل وعلا، وأن المشقة والعنت والتعب والإرهاق لا يكون سببًا لتأخيرهم للصلاة وتفريطهم في سنن الله تعالى فيها، وسببًا لخروجهم عن حد الخشوع والإخلاص والإقبال على الله تبارك وتعالى والتدبر، وأن يؤدي صلاته كيفما اتفق حتى يجري ويسرع ليأتي بالأكل أو الشرب أو ليرمي الجمرات أو ليتزاحم على الماء أو ليركب الأتوبيس قبل أن يفوته، أو ليضع متاعه أو ليفعل كذا وكذا، لا، ما كانت إلا الصلاة هي التي تلازمهم وما كان إلا الصلاة هي التي يداومون عليها، وهي التي تميز سعيهم وإقبالهم على الله جل وعلا دليل محبتهم لربهم، ولما قال قبلها: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ دل ذلك على أن أهم ما يظهر فيه الصبر هو الصلاة **فلا يخرجهم أي شيء عن كونهم مقيمين للصلاة**.

ولهذا كان السلف رضوان الله تعالى عليهم أشد ما يحافظون عليه صلاتهم، بل ويحافظون كذلك على ما حافظ عليه النبي ﷺ من قيام الليل والضحى وغير ذلك في حِلِّه وترحاله صلوات الله وسلامه عليه، وكذلك كان أصحاب النبي صلوات الله وسلامه عليه يداومون على محافظتهم على الفرائض وعلى استكمالهم النوافل.

فقد حج مسروق رضي الله عنه - وهو ثقة فقيه أدرك عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان عابدا عالما فقيها -، حج فما نام إلا ساجدا، يعني من كثرة قيامه لله تعالى ومن مواظبته على وظائف الصلاة التي يصلح به الحج ويستقيم بها الحال ويزداد بها تقربًا إلى الله تعالى.

وكان محمد بن واسع رضى الله عنه يصلي في طريق مكة ليله أجمع في محمله يومئ إيماءةً ويأمر حاديه أن يرفع صوته خلفه حتى يشغل عنه الناس بسماع صوت الحادي فلا يتفطن إليه أحد أنه يصلي. وكان المغيرة بن حكيم الصنعاني يحج من اليمن ماشيًا وكان له ورد يقرأ فيه كل ليلة ثلث القرآن، فيقف فيصلي حتى يفرغ من ورده ثم يلحق بالركب متى لحق فربما لم يلحقهم إلا في آخر النهار.

وروى أحد الصالحين أنهم كانوا حال سيرهم للحج ينزل بهم أمير الحج ليصلوا الفجر كل يوم قبل أن تشرق الشمس، وفي يوم من الأيام لم ينزلوا فأخذ ينادي عليهم لينزلوا حتى يدركوا صلاة الصبح قبل أن تشرق الشمس، فلم يلتفت إلى ندائه أحد، قال: فعزمت على أن أنزل فأصلي صلاة الصبح قبل أن تشرق الشمس ولو كلفني ذلك ما كلفني، فتوضأ في محمله ثم نزل **ليصلي الصبح حاضرا حتى لا يخرج وقتها**، وهو يقول: وأنا أضعف من أن أمشي إليه، ولا أستطيع إذا تخلفت عن هذه الرفقة أن ألحق بهم، -ومع ذلك نزل ليصلي-، قال: فما أن صلى وأتم صلاته سارع ليلحق بالقافلة إذا بالقافلة واقفة لم تبرح مكانها، فسألهم؛ فقالوا: منذ نزلتَ لتصليَ تعقدت مقاود الإبل فنحن في تخليصها إلى الآن، قال: فعلمت **أنه ما قدم أحد أمر الله جل وعلا**

على حظ نفسه وراحتها إلا ورأى سعادة الدنيا والآخرة، وما قدم راحة نفسه وحظها إلا ورأى شقاوة الدنيا والآخرة، فكان ذلك حسن معاملتهم مع ربهم ﷻ التي يحافظ المرء عليها في كل أحواله حتى يكون على هذا العهد من بر الحج، وحتى يصل إلى هذه الدرجة التي ذكر الله تعالى.

إصلاح الإقبال على الله في الصلاة

ولأن الصلاة من أعظم أعمال البر؛ إذ هي من أهم الأمور التي تصلح من سير المرء إلى الله تعالى، نوضح شيئًا مما ينبغي أن تكون أحوال المرء عليه حال الصلاة، ليستغل المرء هذه الفرصة العظيمة في أيام البر لتغيير أحوال ضعف الإقبال على الله تعالى.

وذلك لأن الصلاة هي أول ركن من أركان الدين العملية، ولأن تقصير المؤمنين في صلاتهم كان سببًا في أنهم لم يحصلوا النتيجة المرجوة التي ذكر الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢] ولأنهم يتمايزون بذلك عند الله تبارك وتعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٩] وأهمية ذلك، أنه إذا كان أهل الإيمان المحبون لربهم المقبلون عليه هم المتأخرين الزاهدين فيما عند الله تعالى من حظوظ الآخرة **فإن ذلك ينبني عليه تأخر هذا الدين، وغلبة المشركين على المؤمنين**، وما وقع بغيرهم من أهل الإيمان يمكن يقع بهم لهذا التفريط وهذا التقصير الذي وصلنا إليه.

والسؤال المهم: كيف يتحقق المرء في صلاته بالدرجة التي تكون سببًا في قربه من ربه وتعلق القلب به جل وعلا، **وأن تكون الصلاة نورًا وبرهانًا للمرء يوم القيامة؟** طريق ذلك أن يتحقق في هذه الصلاة بمعاني المناجاة والخضوع والخشوع لله تعالى والإقبال عليه ودعائه والتملق له والتفكر في آياته وحضور القلب بين يدي الله تعالى والتفهم لما يتلو من آياته مع بث ربه شكواه من نفسه وضعفها، ومن سوء صنيعه وتقصيره، فيكون ذلك سببًا لأن يأخذ المرء حظه من الله تعالى وحظه من الآخرة، لأن هذه الحظوظ ليست من حظوظ الدنيا وإنما هي من حظوظ الآخرة.

وهذا **الأمر الأول** الذي ينبغي أن يكون في اهتمام المؤمنين **كيف يحصلون حظهم من الجنة، فهذه الحظوظ من سعادة ونعيم الجنة عجلها الله تبارك وتعالى لقوم اختصهم بذلك في الدنيا**، وحصلها لهم وأخذهم إليها، واجتباهم واصطفاهم لتحقيق هذه الحظوظ وذلك النعيم الذي ينعم الله تعالى به من يشاء من عباده الذين يستحقون ذلك بفضل الله تعالى.

فإن أقبل العبد على الله تعالى بهذه المعاني في صلاته فإن تعظيمه وخضوعه وخشوعه للرب جل وعلا يزداد ويمتلئ القلب من هيبته ومن استحياء العبد من تقصيره في هذه القربات والطاعات، إذا بالله جل وعلا قد أقبل عليه.

والأمر الثاني الذي غاب عن فكر المؤمنين وأذهانهم وعقولهم بسبب لَهْوِ الدنيا والتفكر فيها؛ **إنهم متى أقبلوا على الله تعالى أقبل الله تعالى عليهم**، وإذا أقبل الله تعالى عليهم كان من فضل هذا الإقبال أن يهبهم الله تعالى من نوره كما قال: «كانت له نورًا

وبرهانًا»(١٠٦) فهذا النور يأخذه من ربه ﷻ إذا ما أقبل عليه ويأخذ كذلك من رحمته ومن عفوه ومن محبته ومن الطمأنينة إليه والسكينة به ومن ثبات القلب على تلك المحبة التي تظهر على وجه المرء وفي أعماله كما قال: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩] فتراه عندئذ من الزاهدين في الدنيا المقبلين على الآخرة المسارعين إلى الطاعة، إذا عَذُبَت عنهم هذه الصلاة أو بعدوا كأنهم ماتوا، وأحسوا بالغربة والوحشة وبالضيق مِن الدنيا ومَنْ فيها، ولا يعود إليهم اطمئنانهم ونعيمهم وسرورهم وقرة أعينهم إلا أن يعودوا لإقبالهم على ربهم، ووقوفهم بين يديه ﷻ، كما قال ﷺ «**ورجلٌ قلبه معلق بالمساجد حتى يرجع إليها**»(١٠٧) وكما قال: «**وانتظار الصلاة بعد الصلاة**»(١٠٨) وكما قال المولى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣]. وقيل كذلك لأحدهم: ما بال أهل الليل أكثر الناس نورًا؟ قيل لأنهم أقبلوا على ربهم فكساهم من نوره ﷻ.

لذلك ينبغي أن يتفطن المرء لخطورة شأن الإقبال على الله تعالى في الصلاة، حتى يبدأ في تقويم هذه الصلاة، وحتى تكون هذه الصلاة على الحال الذي يريد به ذلك الحظ من الله تبارك وتعالى **وحتى تتغير هذه الهيئة من هيئات الصلاة التي نحن عليها،**

(١٠٦) رواه الإمام أحمد في مسنده (٨٣/١٠)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٩٧/١)، وقال: رجال أحمد ثقات.

(١٠٧) رواه البخاري (٦٨٠٦) كتاب الحدود، باب فضل من ترك الفواحش، ومسلم (١٠٣١) كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة.

(١٠٨) رواه مسلم (٢٥١).

فإذا ما تغيرت صلاة المرء تغيرت كل أحواله وعندها سوف يحزن ويصيبه الكآبة السآمة والملل عندما يخرج من بين يدي الله ﷻ، لأنه يعلم أنه لن يخرج إلى شيء أفضل من ربه، إلى أي شيء يخرج أفضل من ربه وأحسن من الإقبال عليه؟ أي شيء أفضل من أن يكون واقفًا بين يديه، خاضعًا له، مقبلًا عليه يرجو رحمته، وينتظر بركته، وينتظر عفوه، وينتظر إحسانه وجوده وكرمه وبره، وينتظر أن يتوب عليه وأن يفتح عليه، وأن يشرح له صدره وأن يُثبت له قدمه وأن ينير له قلبه، وأن يأخذ بيديه إليه، إلى أي شيء أفضل من هذا يذهب؟! هذه أيام البر مفتوحة لتحقيق المجاهدة لتحصيل ذلك.

استقامة القلب في الصلاة

إن الصلاة من أهم ما يصلح به القلب ؛ إذ إن استقامة القلب هي سبب الفلاح، ولا يستقيم القلب إلا بأمرين. **الأول: أن تتقدم محبة الله تعالى في القلب على جميع المحاب**، فلا يتقدم في قلبه على محبة الله تعالى شيء، لا مالٌ، ولا جاهٌ، ولا ولدٌ ولا سلطان ولا هوى متبع، ولا نفسه، ولا الناس أجمعون، لا يؤمن أحدُكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فلا تتقدم محبة غير الله تعالى على محبته في قلب العبد لأن القلب هو محل الرب ﷻ الذي تظهر فيه معرفته والأنس به والشوق إليه والخوف منه ورجاؤه ﷻ والإنابة إليه والتوكل عليه، وحسن الظن به، ولأن هذا القلب هو مستقر هذه الرحمات من الله تعالى، فإذا ما تعلق القلب بغير الله تعالى، أخذ شعبة من محبة الله تعالى، وفي هذه الحالة فإنه لا ينال ما يحبه في هذه الدنيا إلا بتنغيص ونكد - كتب الله تعالى ذلك - وانظر إلى حالك عندما تقدم محبة المال والدنيا، فتشقى به جمعًا

وحرصًا وحفظًا وخوفًا من ضياعه، وإذا افتتنت بمحبة الصور والمناظر الجميلة عُذِّبت بها وانشغلت بها، وتفرق قلبك في أودية الدنيا بسببها، وهكذا كلما أحب المرء شيئًا لا يناله إلا بنكد وتنغيص، **وقد كتب الله تعالى وقضى قضاءً لا يُدفع أن من أحب غير الله تعالى عذب به ولا بد، وأن من خاف غيره سلطه عليه، وأن من اشتغل بغيره كان شؤمًا عليه**، وأن من آثر غيره عليه لم يبارك له فيه، وأن «**من أرضى غيره بسخطه أسخطه الله تعالى عليه**»(١٠٩) ولا بد.

والأمر الثاني: هو تعظيم الأمر والنهي لتتحقق له هذه الأحوال الحسنة في صلاته فتنسحب على بقية أحواله، وتعظيم الأمر والنهي دليل على تعظيم الآمر الناهي ﷻ، وانظر إلى أحوالنا فكلما رأيت أمرًا من أمورك لا تأخذه بالتعظيم الذي يستحقه هذا الأمر دل ذلك على عدم تعظيمك للآمر الناهي ﷻ وكلما وقعت فيما يخالف الرب جل وعلا فإن ذلك يدل على عدم تعظيم الناهي ﷻ، وهذه الحالة لا يستقيم معها القلب، فتراه مترددًا متشككًا متقهقرًا لا يثبت على الطاعة ولا يستقر عليها فضلًا عن أن يقبل عليها بالمحبة والرضا، وأن يقبل عليها بالمسابقة والمسارعة إليها، وأن تكون محبة الله أعظم المحاب في قلبه لا يتقدمها شيء.

فانظر إلى ما نحن فيه من الأحوال التي تدل على عدم استقامة القلب من هذين السببين وانظر كيف أهملنا تعظيم الآمر الناهي في أوامره ونواهيه، وحتى إذا عظمنا أمرًا أو نهيًا لا نأت به على الحال الذي يدل على التعظيم الكامل لله تبارك وتعالى.

(١٠٩) يشير الشيخ إلى ما أورده المنذري في الترغيب والترهيب (٣/٢٠٩)، وقال: إسناده جيد قوي.

ومن أمثلة عدم التعظيم، من فاتته صلاة الجماعة وقلبه لا يحس بالألم لفواتها، ولم يحس بالمصيبة التي وقع فيها، فصلاة الجماعة كما قال النبي ﷺ: «**تعدل صلاة الفرد بسبع وعشرين مرة**»(110) ولو قلنا إن تاجرًا قد فاته في صفقة واحدة سبعةٌ وعشرون دينارًا لأكل يديه أسفًا وندمًا على صفقة ضاع عليه منها هذا المبلغ بدون تعب منه وبدون مشقة، ولكن إذا ضاعت عليه صلاة الجماعة، وهي تعادل ألف ألف ألف لا بل وأضعاف مضاعفة من الثواب، إذ كما يقول النبي ﷺ: «**ركعتان مما تحقرون من أعمالكم خير من الدنيا وما فيها**»(111)، ومن أصابته هذه المصيبة لا يهمه شيء، ولا يرتاع لشيء، ولا يأسف ولا يحزن على شيء، ولا يحاسب نفسه على شيء!

وكذلك من فاته الصف الأول، الذي لو عُلِمَ ما فيه لاستبقوا إليه، وكذلك من فاته الجمع الكثير الذي تتضاعف به الحسنات وتُحط به السيئات.

أو من فاته الخشوع في الصلاة وهو أدب من آدابها، وواجب من واجباتها – وإن مانت الصلاة بلا خشوع قد أسقطت عنه الفريضة في الدنيا – ولكن صلاة المرء لا تقبل بغير هذا الخشوع فإنه لب الصلاة وروحها، **فصلاة بلا خشوع كالبدن الميت.**

---

(110) إشارة إلى ما جاء في فضل صلاة الجماعة وهو ما رواه البخاري (٦٤٥) كتاب الأذان، باب فضل صلاة الجماعة، ومسلم (٦٥٠) كتاب المساجد، باب فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها.

(111) إشارة إلى ما جاء في فضل صلاة ركعتي الفجر وهو ما رواه البخاري (١١٦٣) كتاب الجمعة، باب تعاهد ركعتي الفجر ومن سماهما تطوعا، ومسلم (٧٢٤) كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب ركعتي سنة الفجر والحث عليهما.

وقد مثلها العلماء كالمرء الذي أهدي ملك من ملوك الدنيا جارية ميتة أو عبدًا ميتًا؟ كيف يكون موقفه عند قبول هذه الهدية؟ فصلاة بلا خشوع مثل ذلك، فإذا ما قدمها لله تعالى لا روح فيها، ولا خشوع فيها، ولا إقبال فيها، ولا تذلل فيها، ولا تدبر فيها، ولا تفهم فيها يدل على عدم الحياء من الله تعالى، وعلى عدم الهيبة له، وعلى عدم التعظيم له ﷻ، لو كان معظمًا لهذه الأوامر والنواهي لكان عليه أن يستحي أن يُهدي إلى ربه هذه الصلاة! ولهذا المعنى قال النبي ﷺ: «**ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها.. نصفها ثلثها... حتى وصل إلى عشرها**»[١١٢].

فالمرء إن فقد الخشوع في الصلاة، أصبح كمن يخاطب الله تعالى بما لا يفهمه ولا يعيه، والذي يدخل في هذه الصلاة على هذه الحال، يخرج من صلاته كما دخل فيها.

والأصل في الصلاة أنها تكفر سيئاته، كما قال النبي ﷺ «**مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر**»[١١٣]. فهل يستوي في ذلك من صلى الصلاة على خشوعها والإقبال على الله وحضور القلب بين يدي ربه ومن صلَّاها على الغفلة وعدم الخشوع؟ وانظر إلى نفسك، فإن كانت الصلاة قد كفرت تلك السيئات فأنت تخرج منها وأنت تستشعر خفة وانشراحًا وروحًا وراحة، وترى أن أثقالًا قد وضعت عن كاهلك، وتجد في قلبك النشاط إلى بقية العبادة، وتجد في قلبك المحبة إلى الرجوع إليها، وتجد في نفسك الحزن على الخروج منها، وتجد فيها راحتك كما ذكر النبي ﷺ: «**أرحنا بها يا**

(١١٢) حسنه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب الإيمان (٢٨).

(١١٣) رواه مسلم (٢٣٣) كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة.

بلال»[114]، فأهل الإيمان يدخلون الصلاة ليستريحوا، وليتنعموا بها ولتكون سعادتهم فيها كما ذكر النبي ﷺ: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»[115] وهذا المعنى في أن هذه الصلاة لها نور وبرهان وثمرة عند ربها يتقبلها ويتقبل صاحبها وتكون نورًا له وبرهانًا يوم القيامة، مع تكفير سيئاته في الدنيا، ويخرج منها محبًا لها متعلقًا بها، يود إلا يخرج، يخرج منها وقد تخفف من أثقاله وأوزاره، وسيئاته، قد كُفِّرت عنه تلك الخطايا وهذه الذنوب التي ارتكبها بين الصلاتين فيعود إلى الصلاة أنشط ويعود إليها أحب، ويعود إليها على هيئة يود ألا يخرج منها، لأنه وجد تلك الحال من الراحة والرَّوْح، من النعيم واللذة، من الإقبال والسعادة والسرور، من قرة العين والطمأنينة إلى الله تبارك وتعالى، بما يُرى عليه من دوام الذكر ودوام التفكر، بما يرى عليه من محبة الله تعالى والمسارعة إلى مرضاته، بما يرى عليه من بقية أعمال الطاعات والقربات.

وذلك على عكس الحال اليوم فهم يريدون أن يخرجوا منها ليستريحوا، وسؤالهم حال الصلاة: متي تنتهي الصلاة؟ متى يركع الإمام ومتي يسجد ومتى يسلم؟ فهذه الصلاة تخرج منها كما دخلت فيها لأنه لا رُوحَ فيها، فهل تكون سببًا لتكفير السيئات؟

---

(١١٤) رواه أبو داود في سننه (٤٩٨٥) وسكت عنه، وصحح إسناده العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٢٢٤/١).

(١١٥) أورده ابن حجر في فتح الباري (٣٥٣/١١) وصححه، وصححه ابن القيم في زاد المعاد (١٤٥/١).

والأمر التالي المتعلق بالخشوع، هو ما جاء في حديث النبي ﷺ في حديث يحي بن زكريا عليهما السلام لما قال لبني إسرائيل: «**وأمركم بالصلاة فإذا صليتم فلا تلتفتوا، فإن الله تعالى ينصب وجهه لوجه عبده في الصلاة ما لم يلتفت**»[116] والالتفات نوعان، **التفات البصر**؛ أن يلتفت ببصره يمنة أو يسرة، **والتفات القلب** وذلك هو المهم لأنه يسبب أن يلتفت الرب ﷻ عن عبده، فلابد أن يكون متوجهًا إلى الرب كما جاء في دعاء الاستفتاح: «**وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا**»[117] وهذا التوجه توجه بالقلب وبالبدن وباللسان وبالجوارح، فهو يتوجه بكليته إلى الله تعالى، وإذا ما توجه بقلبه وأقبل بقلبه على الله تعالى فلا يكون كالذي دخل على الملك أو الرئيس الذي يكلمه ويحدثه وهو ملتفت عنه بوجهه وملتفت عنه بقلبه يمنة ويسرة لا يفهم ما يقول ولا يعي ما يقال له، **ما يكون موقف الملك حينئذ من هذا الذي لا يعيره انتباهًا ولا اهتمامًا**؟ ولا يستوعب ما يلقى عليه؟ لابد وأن يخرج من بين يديه ممقوتًا مطرودًا مبعدًا، لا يأخذ من دخوله عليه شيئًا إلا الطرد والمقت والإبعاد، كما ورد في ذلك: «**ضيعك الله كما ضيعتني**»[118].

---

(١١٦) أورده المنذري في الترغيب والترهيب (١/٢٥٣)، وقال: إسناده صحيح أو حسن أو ما يقاربهما، وصححه ابن العربي في عارضة الأحوذي (٦/٨).

(١١٧) رواه الإمام مسلم في صحيحه (٧٧١).

(١١٨) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/١٢٥)، وقال: فيه الأحوص بن حكيم وثقه ابن المديني والعجلي وضعفه جماعة وبقية رجاله موثقون.

لذلك لا يستوي هذا الملتفت بقلبه ومن أقبل على ربه حاضر القلب، فذلك الملتفت قد امتلأ قلبه من الوساوس والخطرات، **وحالت هذه الوساوس والخطرات بينه وبين أن يتلقى من الله تعالى كلامه، وأن يفهم عن الله تعالى مراده ﷻ**، بل صارت حجابا بينه وبين ربه ﷻ فضلًا عن أن يكون سببًا لرحمته وبركته ونزول فتحه ﷻ، وما يكون من أفضال الله تعالى وإنعام الله جل وعلا عليه، وهو كذلك ما أن يقول: الله أكبر، حتى يذهب إلى السوق والبيت والعمل والدراسة والولد والمال والعراك والشجار وما كان وما يمكن أن يكون! كيف يستوي هذا مع من أُشعر قلبه عظمة الله تعالى وامتلأ قلبه من هيبته وذلت عنقه له، واستحيا من الله جل وعلا أن يراه ملتفتًا إلى غيره أو ناظرًا إلى سواه.. **لا يستويان**، ولكن كما يقول بعض أهل العلم: «**الفارق بين صلاتهما في الفضل كالفارق بين السماء والأرض**».

وانظر إليك أيها المسكين إلى صلاتك **وقد التفت الله تعالى عنك، وصار لا ينظر إليك جل وعلا**، انظر إلى هذه الحال السيئة التي عمت أحوالنا، والتي شملت الغفلة جوانبها كافة، وأصبح المرء جسدًا ميتًا يقف لا حراك له، لا خشوع له، وهذا ما يدعوه أن يصلح ذلك، ويحذر كيد الشيطان فإن العبد إذا وقف بينه وبين ربه ﷻ جاء الشيطان يقول: «**أُمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأُمرت بالسجود فأبيت فلي النار فيقول: يا ويلاه**»[119]، **فيغار الشيطان من العبد أن وقف هذا الموقف، فلا يزال به حتى يفسد عليه ذلك الموقف**، إما أن يترك الصلاة، وإن لم يتمكن منه دخل عليه في

(١١٩) رواه الإمام مسلم في صحيحه (٨١).

صلاته فوسوس له: اذكر كذا وكذا، حتى إنه يُذكِّره الشيء قد نساه ليحول به بينه وبين إقباله على ربه.

فإذا جاهد المرء نفسه وبدأ في دفع هذه الوساوس والخطرات وأحضر قلبه تلاوة ما يذكر، وتفهم ما يتلى عليه من كلام الله تعالى، وتضرع إلى الله جل وعلا أن يحميه من نزغات الشيطان، إذا به قد أقبل على ربه، مما يكون سببًا في رحمة الله به وفتح الله تعالى عليه وإقبال الله جل وعلا عليه، كما قال في الحديث القدسي «عبدي قُم إليَّ أمش إليك»(١٢٠) قُم فقط!

إن الشيطان يدخل على قلب المرء الغافل الذي لم يستقم الاستقامة المطلوبة فيجد فيه عُدَّتَه وسلاحه، من الغفلة وحب الدنيا والزهد في الآخرة وطول الأمل، والحقد والحسد والغل، وحب المال والأهل والولد، **فيأخذ كل هذه الأسلحة ويقاتله بها، حتى يفسد عليه قلبه**، لا يصعب عليه شيء فقد وجد أسلحته جاهزة في هذا القلب المريض الذي قد امتلأ بهذه الشهوات وعواصف الأهوية، فإن القلوب ثلاثة، **قلب قد امتلأ بالظلمات والشهوات** وهو قلب الكافر والمنافق، وقلب قد استنار بنور الإيمان ولكن **لازالت عليه ظلمات الشهوات والأهوية** التي تعصف به بين الحين والحين، فهذا القلب للشيطان له مجالات ومناوشات ومنازعات، فتارة يلجأ إلى الله فيدفع نزغ الشيطان، وتارة يغفل فيكسبه الشيطان وينازله ويتغلب عليه، **وقلب قد استنار بنور**

---

(١٢٠) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/١٩٩)، وقال: رجاله رجال الصحيح غير شريح بن الحارث وهو ثقة. وصحح المنذري إسناده في الترغيب والترهيب (٤/١٢٥).

الإيمان، انقشعت منه هذه الشهوات وعواصف الأهوية التي تعصف به، والشبهات، واستنار بمحبة الله تعالى والطمأنينة إليه، وسمت فيه هذه الإنابة إلى ربه والتوكل عليه والطمأنينة له بإتمام الذكر وإدمانه، وقراءة القرآن ومحبته والإقبال عليه، وقصر الأمل في الدنيا، **فأنَّى للشيطان أن يهجم عليه**، ما أن يقترب منه الشيطان حتى يحترق، وهذا القلب في حفظ الله تعالى إلا ما كان من عوامل البشرية التي لابد للمرء أن يقع فيها من الشهوة أو الغضب أو الغفلة فينتهبها الشيطان نهبة ثم تدركه رحمة الله تعالى، ويفيء إليه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢١].

في نهاية الكلام **انظر في أي هذه القلوب قلبك** لتتبين درجتك حيث وضح العلماء لأهل الإيمان هذه الدرجات في صلاتهم كما قال: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٩]، وقد أوردها الإمام ابن القيم في الوابل الصيب(١٢١) فقال:

(١٢١)قال بن قيم الجوزية رحمه الله: (و الناس في الصلاة على مراتب خمسة : أحدها : مرتبة الظالم لنفسه ، المفرط ، و هو الذي انتقص من وضوئها ، ومواقيتها ، وحدودها ، و أركانها ،الثاني : من يحافظ على مواقيتها ، و حدودها ، و أركانها الظاهرة ، ووضوئها ، لكن قد ضيع مجاهدة نفسه في الوسوسة ، فذهب مع الوساوس و الأفكار . الثالث : من حافظ على حدودها ، و أركانها ، وجاهد نفسه في دفع الوساوس و الأفكار ؛ فهو مشغول بمجاهدة عدوه ؛ لئلا يسرق صلاته ، فهو في صلاة و جهاد . الرابع : من إذا قام إلى الصلاة أكمل حقوقها ، وأركانها ، وحدودها ، و استغرق قلبه مراعاة حدودها و حقوقها ؛ لئلا يضيع شيئا منها ، بل همه كله مصروف إلى إقامتها كما ينبغي ، و إكمالها ، و إتمامها ، قد استغرق قلبه شأن الصلاة ، و عبودية ربه تبارك و تعالى فيها . الخامس : من إذا قام إلى الصلاة ؛ قام إليها كذلك ، ولكن مع هذا قد

المرتبة الأولى: وهي مرتبة الظالم لنفسه المفرط، الذي قد انتقص صلاته في وضوئها وفي أوقاتها، وفي حدودها وحقوقها وأركانها، **والمرتبة الثانية:** هذا الذي قام إلى الصلاة - كما ذكرنا في تعظيم الأمر والنهي - وأكمل وضوءها وحقوقها وأركانها وواجباتها، وتحين وجوبها فسارع إليها،ولكنه **ترك نفسه نهبًا للوساوس والأفكار ونزغات الشيطان.**

والمرتبة الثالثة: الذي قام إلى الصلاة مسارعًا إليها محبًا لها، حريصًا على تحينها في وقتها، مسارعًا إلى وقت وجوبها، وأكمل أركانها وواجباتها وكمالاتها، وتأدب فيها بالإقبال على ربه، ثم **بدأ يجاهد نفسه في دفع الوساوس والخطرات التي أقبلت عليه،** حتى تستقيم له صلاته، وحتى يقبل على ربه فهذا في صلاة وجهاد،

المرتبة الرابعة: وهو الذي فعل كل ما سبق ثم انشغل بإكمال هذه الصلاة وبآدابها وبإقباله على ربه ﷻ، ثم **اشتغل قلبه بعبودية الله جل وعلا وبإكمال الصلاة وإتمامها،** فهو

أخذ قلبه و وضعه بين يدي ربه عز و جل ؛ ناظرا بقلبه إليه ، مراقبا له ، ممتلئا من محبته و عظمته ، كأنه يراه و يشاهده و قد اضمحلت تلك الوساوس و الخطرات ، و ارتفعت حجبها بينه و بين ربه ، فهذا بينه و بين غيره في الصلاة أفضل و أعظم مما بين السماء و الأرض ، وهذا في صلاته مشغول بربه عز وجل ، قرير العين به . فالقسم الأول معاقب ، والثاني محاسب ، والثالث مكفر عنه ، والرابع مثاب ، و الخامس مقرب من ربه لأن له نصيبا ممن جعلت قرة عينه في الصلاة فمن قرت عينه بصلاته في الدنيا قرت عينه بقربه من ربه عز و جل في الآخرة وقرت عينه أيضا به في الدنيا ومن قرت عينه بالله قرت به كل عين ومن لم تقر عينه بالله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات) من كتاب الوابل الصيب من الكلم الطيب ص ٤٩-٥٠ ط دار ابن الجوزي.

يكافح في أن يتم صلاته على الوجه الأكمل وفي أن يتعبد لربه على الوجه المطلوب، فهو يكافح في ذلك ويجاهد فيه.

المرتبة الخامسة: وهي الدرجة العالية، فهو الذي فعل كل ذلك على الوجه الأكمل ثم ألقى بقلبه بين يدي ربه مراقبًا له، مشاهدًا له، فامتلأ قلبه من عظمته والإقبال عليه، والاستحياء منه، والهيبة له، **فهذا هو قرير العين بالله جل وعلا**، فقلبه بين يدي ربه ﷻ معظمًا له، مقبلًا عليه، طرح نفسه بين يدي ربه جل وعلا على المشاهدة والمراقبة والمحبة له ﷻ، فشأنه شأن المقربين، قريري العين بهذه الصلاة.

فالأول معاقب، والثاني محاسب، والثالث مكفر عنه ، والرابع مثاب، والخامس مقرب من ربه، فانظر نفسك في أي الدرجات لترى الحال التي أنت فيها، والعاقبة التي تنتظرها، ثم تذكر أيام البر لتحصل فيها درجة عالية يوفقك الله تعالى ببركـ فيها.

كيف يتهيأ المرء قبل الصلاة؟

وهو السؤال الذي قد يسأله المرء، إذ لا يتمكن المرء من بلوغ هذه الدرجات الحسنة إلا بالتهيؤ قبل الصلاة.

وقد ذكر بعض أهل العلم أنه إذا أراد ذلك فينبغي أن **يجدد قبل صلاته ذكر الآخرة**، وأنها يمكن أن تكون آخر صلاة كما قال ﷺ: «صل صلاة مودع»(١٢٢) وكذلك **أن يعظم خطر المقام بين يدي الله تعالى، وأن يستشعر عظيم المناجاة لله** ﷻ، فموقفه في الأولى هو

---

(١٢٢) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٢٣٩)، وقال: رجاله ثقات.

موقفه في الآخرة ، فإذا ما دخل الصلاة كان يمكنه أن يدافع هذه الوساوس التي تأتيه.

ثم **يذكر هول المطلع، ووقوفه بين يدي ربه للحساب والمناقشة**، إذا ما تذكر هذه الأمور وأحضر القلب بكليته على الله تعالى، فإذا ما كبر كبَّرَ بأن **الله تعالى هو الأكبر، الذي لا أكبر منه**، ويستشعر كذبه عندما يقول: الله أكبر ثم يقبل على غيره، وينشغل بغيره جل وعلا، ويكون في إقباله على غيره أكثر من إقباله عليه جل وعلا.

فإذا ما استشعر المرء هذه المعاني قبل أن يدخل في الصلاة يوشك أن يدافع هذه الوساوس، وأن يحضر قلبه فيها، ويوشك أن يمتلأ قلبه بالخوف من أن يخرج بين يدي ربه ممقوتًا مبعدًا مطردًا على هذه الحالة السيئة التي أشرنا إليها، ويوشك أن يكون في صلاة وجهاد، لعله يترقى بعد ذلك إلى ما بعدها من درجات، وألا يترك نفسه في الدرجة الثانية التي يحاسب عليها في صلاته فيكون محاسبًا لا يُحصل فيها شيئًا ولكن يتذكر قوله ﷺ: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**»[١٢٣].

لذلك ينبغي أن تحاول في هذه الأيام من أيام البر بداية الإصلاح لهذه الأمور؛ **إن صلح شيء منها في دنياك صلح كثير من أحوالك مع الله تبارك وتعالى**، وإن بقيت على ما أنت فيه وأغلقت باب المجاهدة، وأعرضت عنها، وسددت الطريق بنفسك الأمارة بالسوء، فلن يتغير الحال الذي أنت فيه.

---

(١٢٣) أورده ابن حجر في فتح الباري (٣٥٣/١١) وصححه، وصححه ابن القيم في زاد المعاد (١٤٥/١).

فإصلاح شأن الصلاة ينبغي أن يأخذ قسطًا كبيرًا من أفكار المؤمنين، وأن يجلسوا ليحققوا في أنفسهم هذه المعاني، وألا يتركوا أنفسهم بقولهم إن شاء الله غدًا، وإن شاء الله بعد غدٍ، وإن شاء الله سأحاول، لا، ولكن كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [الزمر: ١٨] فهم في نفس اللحظة التي يستمعون فيه (القول) تكون نيتهم اتباع أحسن القول، وفي اللحظة التي يستمعون فيها لتقصيرهم وتفريطهم نيتهم البدء في تدارك هذا التقصير، وهذا التفريط في نفس اللحظة، لا يؤخرونها، **تأخيرهم فيها دليل على أن الشيطان قد استحوذ عليهم، دليل على أن الشيطان لبَّس عليهم، وغرهم، ومنّاهم الأماني،** ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠] لأن هذه الوعود من الشيطان تخالف وعد الحق ﷻ، وهي التي تفسد القلب مع بقية المفسدات التي ينبغي أن يتحرز المرء منها، وأن يبدأ في علاج نفسه بالتضرع إلى الله تعالى، متوسلًا إليه بأسمائه وصفاته، باكيًا بين يديه، ذليلًا حقيرًا على بابه جل وعلا، إلى أن يفتح عليك ويصطفيك ويجتبيك ويعلمك، إلى أن يقويك ﷻ ويمدك بمدده الذي لا ينفد.

الجمعة يوم المزيد من الأعمال الصالحة

ونستكمل به الكلام في قضية إصلاح الصلاة، ونختصر فضل هذا اليوم وما ينبغي أن يكون فيه المؤمن من أعمال الإيمان، ونبين فيه كذلك معاني إصلاح الإقبال على الله تعالى وتفريغ القلب والبدن له ليكون ذلك سببًا في تحصيل الفضل العظيم من الله جل وعلا.

كان السلف يقولون **الجمعة حج المساكين** وهي كذلك عيد المؤمنين وكما ذكر الإمام ابن القيم: فإن كان العيد فيه صلاة وقربان يقربه المرء إلى ربه ينتظر به هذا الثواب الجزيل من الله تعالى، فإن الجمعة كذلك، ولهذا المعنى فإن النبي ﷺ قرنها بما يقدمه الحاج من قربان إلى الله تعالى يتكفل به أن يكون سببًا في عتقه من النار، لذلك قال النبي ﷺ: «**مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُسْلَ الْجَنَابَةِ ثُمَّ رَاحَ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ حَضَرَتْ الْمَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ**»(١٢٤).

فإنه من يأتي في الساعة الأولى يقدم إلى الله تعالى هذا القربان العظيم الذي يسره الله تعالى لنا وقصرنا نحن فيه!

ويوم الجمعة **أفضل يوم طلعت عليه الشمس**، يقول النبي ﷺ: «**خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ**»(١٢٥) فهو عيد المسلمين المتكرر الذي ينبغي أن يتأهل له المسلمون كل أسبوع، **لأن العيد عند المسلمين معناه السرور بالله تبارك وتعالى**، وإذا سر الناس بربهم وظهرت منهم طاعتهم وصعدت قرباتهم إلى الله تعالى وتنزلت عليهم رحمة الله

---

(١٢٤) رواه الإمام البخاري في صحيحه باب فضل الجمعة، والإمام مسلم في صحيحه كذلك في باب الطّيب والسواك يوم الجمعة.

(١٢٥) رواه الإمام مسلم في صحيحه في باب فضل يوم الجمعة، والإمام مالك في موطئه في باب ما جاء في الساعة التي في يوم الجمعة.

تعالى ومغفرته حُقَّ لهم أن يُعَيِّدُوا، وحُقَّ لهم أن يُسَرُّوا بالله تعالى، فإنهم ليس لهم سرور إلا بالله تعالى، فإن سُرُّوا بغير الله تعالى دلَّ ذلك على بعدهم وغفلتهم عن ربهم ﷻ، **لأن المسرور بالزائل من حطام الدنيا من المال والجاه، إنما هو مسرور بما يزول ولا يبقى له**، أما السرور على الحقيقة فإنما هو السرور بربه إذ يفتح عليه، إذ يرحمه، إذ يقبل عليه ﷻ ويصطفيه ويجتبيه لعبادته وطاعته، ويجعله محل رحمته وتنزل بركته ومغفرته: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

ولأن الجمعة هو اليوم الذي يغفر الله تعالى فيه للمؤمنين، كما ذكر النبي ﷺ: «**الْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ كَفَّارَةُ مَا بَيْنَهُمَا مَا لَمْ تُغْشَ الْكَبَائِرُ**»[١٢٦]. فينبغي أن يتهيأ كل أحد لهذه المغفرة، والرحمة وأن يتمسكوا بآدابها، وأن يتحققوا بما يوصلهم إليها.

وكما يقول العلماء: إذا اكتملت دورة الأسبوع، واكتملت طاعة المرء فيها وجاء يوم الجمعة إذا بهم يستعدون للمغفرة من الله تعالى فيغفر لهم أسبوعهم، فإذا جاء رمضان غُفر لهم سنتهم، فمن سلم له يوم الجمعة سلم له أسبوعه، ومن سلم له رمضان سلمت له سنته، ومن سلم له حجه سلم له عمره.

ولذلك فالمرء ينبغي حينئذ أن يأخذ أهبته واستعداده، وأن يكون متحققًا بكل تلك الأسباب التي تكون عونًا له على أن يقتنص هذه الفرصة التي منحها الله تعالى له في

(١٢٦) رواه ابن ماجة في سننه باب في فضل الجمعة.

أسبوعه وعامه وعمره، حتى إذا أتى الله تعالى أتاه كيوم ولدته أمه كما قال النبي ﷺ عمن كان هذا حاله إنه: «**يمشي على الأرض وليس له خطيئة**»(١٢٧).

ومن فضائلها التي ينبغي أن يفهمها المرء ولعله لم يسمع ذلك الحديث من قبل وهو قوله ﷺ: « **مَن غَسَّل يوم الجمعة واغْتَسَل، وبَكَّر وابْتَكَر، ومشى ولم يركب، ودَنا مِن الإمام فاسْتمع ولم يَلْغُ كان له بكل خُطوة عملُ سنة أجرُ صيامِها وقيامِها** »(١٢٨) بل ذلك على الله يسير، أن تكون كل خطوة يخطوها كقيام سنة وصيامها، فما زال فتح الله تعالى للمؤمنين في الصيام والقيام،وأن يعوضهم ذلك الثواب الذي قد فقدوا أيامه وقلت حلاوته في قلوبهم ألا يستهينوا بهذا الفضل وأن يحاولوا القيام به وأن يسعوا في تحصيله.

لذلك كان **الإتيان إلى الجمعة ماشيًا عند كثير من أهل العلم مقدمًا على أن يأتي راكبًا** لهذا الثواب الذي ذكر النبي ﷺ، فالجمعة من ناحية تُكفِّر السيئات، ومن الناحية الثانية ترفع الدرجات، والمشي إليها يُعْظِم به المولى ﷻ الأجر الذي طالما فرطنا فيه.

والحديث الثاني في تكفير السيئات وغفران الذنوب، يقول فيه ﷺ: « لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من طهر ، ويدهن من دهنه أو يمس من طيب

(١٢٧) يشير الشيخ إلى ما رواه البخاري (١٥٢١) كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور، ومسلم (١٣٥٠) كتاب الحج ، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة.

(١٢٨) رواه الترمذي في سننه (٤٩٦)، وقال: حديث حسن، وحسنه النووي في المجموع شرح المهذب (٥٤٢/٤).

بيته ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين ثم يصلي ما كتب له ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى »[١٢٩] فإن كان الحديث الأول يبين الدرجات العالية من كل خطوة يخطوها المرء إلى المسجد، فهذا الحديث يبين تكفير السيئات، ويبين ذلك كله كيف يمشي إلى المسجد ليحصل ذلك.

ومن أفضال هذا اليوم ما وضَّحه النبي ﷺ من أنه أفضل يوم أُوتِيه أحدٌ من الأمم، فيقول: ﷺ: « **نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ونحن أول من يدخل الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فاختلفوا فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه هدانا الله له قال يوم الجمعة فاليوم لنا وغدا لليهود وبعد غد للنصارى** »[١٣٠]، يعني نحن الآخرون في الأمم من حيث الزمان، ولكننا السابقون الأولون يوم القيامة ، ولكن الله تبارك وتعالى فضل المؤمنين بيوم الجمعة على غيرهم من الأمم السابقة، وقدَّمهم فيه وهم الآخرون في الدنيا ولكنهم السابقون الأولون يوم القيامة فإن الله تبارك وتعالى يقضي بينهم وما يزال الناس قبل أن يقضي بين أحد حتى يدخلوا الجنة كما ذكر النبي ﷺ.

وهو دليل على أن الله تعالى هدى المؤمنين لأفضل يوم طلعت عليه الشمس كما يقول النبي ﷺ: « **خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ أُهْبِطَ مِنْ الْجَنَّةِ وَفِيهِ تِيبَ عَلَيْهِ وَفِيهِ مَاتَ وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا وَهِيَ مُصِيخَةٌ يَوْمَ**

(١٢٩) رواه البخاري (٨٤٣) كتاب الجمعة، باب فضل الجمعة .

(١٣٠) رواه مسلم (٨٥٥).

الْجُمُعَةِ مِنْ حِينِ تُصْبِحُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ شَفَقًا مِنْ السَّاعَةِ إِلَّا الْجِنَّ وَالْإِنْسَ وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يُصَادِفُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللهَ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ. قَالَ كَعْبٌ: ذَلِكَ فِي كُلِّ سَنَةٍ يَوْمٌ، فَقُلْتُ: بَلْ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ. فَقَرَأَ كَعْبٌ التَّوْرَاةَ فَقَالَ صَدَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، هي كلُّ جمعة هذه الساعة... قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: ثُمَّ لَقِيتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ سَلامٍ ﷺ فَحَدَّثْتُهُ بِمَجْلِسِي مَعَ كَعْبِ الْأَحْبَارِ وَمَا حَدَّثْتُهُ بِهِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ... ثُمَّ قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلامٍ ﷺ: قَدْ عَلِمْتُ أَيَّةَ سَاعَةٍ هِيَ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: فَقُلْتَ لَهُ أَخْبِرْنِي بِهَا وَلا تَضَنَّ عَلَيَّ. فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلامٍ ﷺ: هِيَ آخِرُ سَاعَةٍ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: فَقُلْتُ وَكَيْفَ تَكُونُ آخِرَ سَاعَةٍ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لا يُصَادِفُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ يُصَلِّي. وَتِلْكَ السَّاعَةُ سَاعَةٌ لا يُصَلَّى فِيهَا؟ فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلامٍ ﷺ: أَلَمْ يَقُلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَنْ جَلَسَ مَجْلِسًا يَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ فَهُوَ فِي صَلَاةٍ حَتَّى يُصَلِّيَ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: فَقُلْتُ بَلَى. قَالَ: فَهُوَ ذَلِكَ»(١٣١).

والحديث يُوضح الفضل الجليل والخطر العظيم ليوم الجمعة، وأن فيه ساعة **ما من عبدٍ يسأل الله تعالى فيها شيئًا وهو قائم يصلي إلا أعطاه إياه**، وهي الساعة الأخيرة بعد صلاة العصر.

وقد ذكر النبي ﷺ في حديث آخر أن الساعة التي تُرجى فيها الإجابة هي الساعة التي يخرج فيها الإمام حتى ينصرف من الصلاة، وجمع العلماء بين الحديثين بأن رحمة

(١٣١) رواه أبو داود (١٠٤٦) في سننه وسكت عنه وقد قال في رسالته لأهل مكة: كل ما سكت عنه فهو صالح. هذا وأول الحديث رواه مسلم (٨٥٤) كتاب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة.

الله تعالى وفضله واسع، **وأن الله تبارك وتعالى قد هيأ للمؤمنين هذين الوقتين ليستغلوا فيهما الطاعة والدعاء والذكر والعبادة لله تبارك وتعالى**، وإن كان القول الأول أرجح إلا إن القول الثاني كذلك قولٌ صحيح، وعليه فالجمع بين القولين **أن يكون للمؤمن حظه من هذين الوقتين في الدعاء والذكر** حتى يكون ذلك سببًا في هذا الفضل العظيم الذي هيأه الله تبارك وتعالى للمؤمنين، بأن يستجيب دعاءهم في هذا اليوم العظيم الذي بشرهم فيه بالمغفرة وهيأهم فيه لها، وفتح لهم أسبابها التي عجزوا عنها وقصروا فيها وتهاونوا في التسابق إليها كما كانت عادة الصحابة رضوان الله تبارك وتعالى عليهم.

والشيء الأخير في فضل الجمعة، وأعظم أفضالها التي وردت عن النبي ﷺ وهو أن هناك يومًا في الآخرة يسمى يوم المزيد، كما ذكر الله تبارك وتعالى ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، وهو يماثل يوم الجمعة في أيامنا من أيام الدنيا، **ويوم المزيد هو اليوم الذي يزور فيه المؤمنون ربهم يوم القيامة، فيجتمعون بربهم ويرضى عنهم، ويكشف لهم ﷻ عن وجهه، فيروا ربهم**، ويكشف لهم عن سُبُحَاتِ وجهه ﷻ، إلى آخر هذا النعيم الذي لا تصله الإشارة ولا تحيط به العبارة.

وهذا اليوم في الآخرة يكون أقرب الناس فيه إلى ربهم وأدناهم من الله جل وعلا أكثرهم تبكيرًا إلى الجمعة، وانظر لهذا الفضل العظيم في يوم السعادة والرضا، يوم المزيد، لذلك قال ابن مسعود ﷺ: الأول فالأول، والثاني فالثاني والثالث فالثالث، والرابع فالرابع، **وما رابع أربعة على الله ببعيد**، يعني ما رابع أربعة يصل مبكرًا ببعيد

إن شاء الله تبارك وتعالى، وهي الدرجة التي بينها قوله ﷺ: «**من راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة ومن راح في الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشًا أملح، ومن راح في الرابعة فكأنما قدم دجاجة ومن راح في الخامسة فكأنما قرب بيضة، ثم تغلق الملائكة صحفها**»[132]، فهؤلاء الذين تقدموا وعليهم السكينة والوقار ولم يؤذوا أحدًا ولم يتخطوا رقاب أحد ولم يلغوا، كانت الجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهما.

هذه الفضائل والآداب التي ذكر النبي ﷺ في هذا اليوم الكريم، مما ينبغي أن تسارع إليها كما قال المولى جل وعلا: ﴿**وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٣]. وكما قال ﷻ: ﴿**سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ**﴾ [الحديد: ٢١]. وهذه المسارعة وتلك المسابقة التي قال فيها ﴿**وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ**﴾ [المطففين: ٢٦]، وأيام البر هي أيام هذه المسابقة.

والداء الوبيل الذي نعاني منه: أن يسمع السامعون هذا الكلام ولا يتأثرون له، ولا يزلزل كيانهم ليرجعوا إلى ربهم، ولا يبالون حال سيرهم في الدنيا، أن ينظروا إلى من يدعوهم إلى الآخرة ليحاولو. البدء في السير إليها، والتشمير في هذا السير، الاستعداد

---

(١٣٢) رواه البخاري (٨٨١) كتاب الجمعة –باب فضل الجمعة، ومسلم (٨٥٠) كتاب الجمعة، باب الطيب والسواك يوم الجمعة.

لمواصلة هذا السير، و تجهيز الجهاز الذي يبيض وجوههم، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه.

لذلك عليك أن تستغل أيام البر العظيمة الأجر والبركة لتحاول أن تتغير لتكون على هذا السلوك الحسن الذي أشار إليه النبي ﷺ، فتأخذ حظك من الأعمال الفاضلة التي نبَّهك إليها ووصاك بها ولا تبق كما أنت زاهدٌ فيها مقصرٌ في تحقيقها **مقدمٌ لنومك وكسلك وأكلك وشربك وطعامك لتتأخر عن هذه الدرجات**، وكلما تأخر المرء أخَّره الله تعالى، وكلما بعد المرء أبعده الله تعالى، وكلما زهد فيما عند ربه جل وعلا فإن ربه لا يبالي به ويحرمه ذلك ويحرمه غيره، فيكون سبب الوبال والشؤم على نفسه، مع أن هذه يسيرة على من يسرها الله عليه، لا تحتاج منه إلا لتلك المجاهدة المبنية على هذا الحنين والشوق إلى تلك المجاهدة المبنية على المحبة والرغبة فيما عند الله تبارك وتعالى إلى الزهد في الدنيا إلى الإقبال على الآخرة إلى الشوق إلى لقاء الله تعالى، ينتظربها أن يصل إلي بيته انتظارًا لرؤيته يوم المزيد ﷻ.

توفير يوم الجمعة للعبادة

وإذ كان ذلك بعض فضل الجمعة، فينبغي على أهل الإيمان، أن يوفروا هذا اليوم لعبادة الله تعالى، لأن هذا من أعظم أسباب إصلاح الإقبال على الله تعالى، كما يقول الإمام ابن القيم: (إذا كان لكل ملة يوم في الأسبوع يتفرغون فيه للعبادة فإن الله تعالى قد هدى المؤمنين إلى يوم الجمعة، يتفرغون فيه لطاعة الله تعالى وعبادته وذكره ودعائه، أن يبتهلوا إليه برفع طلباتهم وحوائجهم في الدنيا والآخرة إليه)، فإن الله

تبارك وتعالى فيه ساعة لا يسأله أحد فيها شيئًا إلا أعطاه إياه، ومن استكثر أكثر الله تعالى له، ومن قصر فقد علمتم حال المقصرين عند الله تعالى.

ليس كثيراً عليك أيها المسكين أن توفر هذا اليوم لتصادف هذه الساعة من ساعات الإجابة فتسأل الله تعالى فيها خيري الدنيا والآخرة فيعطيك إياه جل وعلا، وأنت مسكين محتاج إلى أشياء كثيرة في الدنيا والآخرة تود أن تطلبها من ربك وأن يحققها لك، وها قد فتح لك هذا الباب وتلك الساعة، **والمقصر هو الذي حرم نفسه، والمقصر الذي ظلم نفسه، ثم بعد ذلك يقول من أين أتيت؟** قدَّمت شهواتك وأكلك وشربك وتنزهك ودخولك وخروجك قدمت ذلك كله على أن تجلس ساعة الإجابة ثم تقول: المرء مقصر، المرء لا يستشعر حلاوة الإيمان، المرء لا يرى نفسه كذا وكذا، وأشغال الدنيا، ويقول كلامًا فارغًا لا يساوي أن يكون عذرًا عند الله تعالى بعد أن فتح لك ذلك كله، لذلك ينبغي أن تسارع وأن تسابق وأن تنافس وأن تكون الأول عند الله جل وعلا في تحصيل فضله وجميل ثوابه سبحانه تعالى وقربه فإنه مَنْ تقرب في الدنيا بذلك كان الأقرب يوم القيامة.

والمعنى التالي في تفريغ ذلك اليوم للعبادة، ليختم به أسبوعه حتى يسلم له ذلك الأسبوع حتى إذا أتى رمضان سلم له عامه، حتى إن أكرمه الله تعالى بعد أيام البر بالحج سَلِمَ له عمره كله.

فإذا ما فرغ المرء يومه ذلك للطاعة فهناك العديد من الأعمال التي ينبغي أن يقوم بها في هذا اليوم:

أولا: الصلاة على النبي ﷺ

وهو من أول هذه الأعمال وأسهلها يوم الجمعة كما ذكر النبي ﷺ: «**فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنْ الصَّلَاةِ فِيهِ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ تُعْرَضُ صَلاتُنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرِمْتَ - يَقُولُونَ بَلِيتَ - فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ**»[١٣٣]، وأنه ﷺ قد وكل به ملك يبلغه سلام من سلم عليه.

والإمام ابن القيم يقول في ذلك: « ورسول الله ﷺ سيد الأنام، ويوم الجمعة سيد الأيام، فللصلاة عليه في هذا اليوم مزية ليست لغيره مع حكمة أخرى، وهي أن كل خير نالته أمته في الدنيا والآخرة، فإنما نالته على يده، فجمع الله لأمته به بين خيري الدنيا والآخرة، فأعظم كرامة تحصل لهم، فإنما تحصل يوم الجمعة، فإن فيه بعثهم إلى منازلهم وقصورهم في الجنة، وهو يوم المزيد لهم إذا دخلوا الجنة، وهو يوم عيد لهم في الدنيا، ويوم فيه يسعفهم الله تعالى بطلباتهم وحوائجهم، ولا يرد سائلهم، وهذا كله إنما عرفوه وحصل لهم بسببه وعلى يده، فمن شكره وحمده، وأداء القليل من حقه صلى الله عليه وسلم أن نكثر من الصلاة عليه في مثل هذا اليوم وليلته »[١٣٤]، **فأقل شكر للنبي ﷺ وأقل أداء لحقه أن يكثر المرء في يوم الجمعة من الصلاة على النبي ﷺ** في هذا اليوم المبارك.

---

(١٣٣) رواه أبو داود (١٠٤٧) كتاب الصلاة، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة، والنسائي (١٣٧٤) كتاب الجمعة، باب إكثار الصلاة على ﷺ، وابن ماجه (١٠٨٥) كتاب إقامة الصلاة، باب في فضل الجمعة.

(١٣٤) زاد المعاد- طبعة مؤسسة الرسالة- الجزء الأول ص ٣٧٦.

فهذا عمل من أعمالهم التي ينبغي أن تكون سبب قربهم من الله وسبب صلاة الله تعالى ورحمته بهم وما من صلاة يصليها المرء على النبي ﷺ إلا ويصلى الله تعالى عليه بها عشرا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

ثانيًا: قراءة سورة الكهف

العمل الثاني فيما صحَّ عن النبي ﷺ أنه «**من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء يضيء له به يوم القيامة ويغفر له ما بين الجمعتين**»[١٣٥] رواه الحاكم والبيهقي وهو حديث صحيح، لذلك ينبغي أن يحرص أهل الإيمان أن يقوموا بهذه الفضيلة من فضائل قراءة القرآن الكريم في هذا اليوم.

وكذلك يحرص المرء يوم الجمعة أن يكون له تلك الختمة من ختمات القرآن الكريم مع الصدقة، **فكل أعمال العبادة والطاعة والقربى يوم الجمعة أفضل مما في غيرها**، يذكر الإمام ابن القيم عن شيخه الإمام ابن تيمية أنه كان يخرج فيتصدق سرًا بكذا وهو ذاهبٌ إلى الجمعة يرجو بذلك أن يرتفع عمله الصالح، لأنه إذا اجتمعت الصدقة مع الصيام والصلاة والدعاء كان ذلك أحرى بمغفرة الله تعالى للعبد وأن يكفر عنه سيئاته.

(١٣٥) أورده المنذري في الترغيب والترهيب (١/٣٥٤)، وقال: إسناده لا بأس به.

وإذا كان يوم الجمعة يوم العيد، وهو اليوم الذي ينتظر العباد فيه مغفرة الله تعالى فإن مغفرة الله جل وعلا لا تتم إلا بأن تتم بين أهل الإيمان مغفرة ما بينهم، **فيكون يوم الجمعة عيدهم الذي يتخلصون فيه من سائر شحنائهم وبغضائهم وما يقع بينهم من قطيعة وإثم ينتظرون بذلك التخلص المغفرة**؛ لأن المغفرة كما ذكر النبي ﷺ: «**يغفر الله تعالى لكل أحد ليلة الاثنين والخميس إلا لمشرك أو مشاحن**»[١٣٦]. فيزيل المرء ما بينه وبين إخوانه من شحناء ويتسامح الجميع رجاء أن يسامحهم الله وأن يغفروا رجاء أن يغفر لهم، وأن يصفحوا رجاء أن يصفح الله تعالى عنهم ﴿**أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [النور: ٢٢].

فهذه الأمور ينبغي إذن أن نتفكر فيها وأن نعلم فضلها وأن نقوم بها يتمكن المرء فيه من إصلاح عبادته وانتظار مغفرته في ذلك اليوم ليَسْلَمَ له أسبوعه كما أشرنا، وليكون سبب قربه من الله تعالى في الآخرة.

ونستكمل أنواع البر الستة، **وخامسها: الوفاء بالعهد**، ﴿**وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟**﴾ فلا يكمل بر الحج بدون الوفاء بالعهود وهذه آية عامة، في أن يوفي لله تعالى بما أخذه على نفسه، كيف يوجه وجهه لبيت الله تعالى وقد خان عهده ولم يوف به، وخان عهوده مع الناس ولم يوف بها؟ إن ذلك من صفات المنافقين، **هل يأتي إلى الله تعالى ويتشرف بزيارة بيته وهو خائن للعهود لم يف بها؟ كيف يكون ذلك؟! وكيف يدخل على ربه؟**

(١٣٦) رواه مسلم (٢٥٦٥) كتاب البر والصلة، باب النهي عن الشحناء والتهاجر.

فالوفاء إذن من أهم الأمور التي يعود المرء نفسه عليها في أيام الخير والفضل حتى إذا أتى الحج كان موفيًا بعهده لله تعالى، فيرجو أن يكون حجه مبرورًا، ويحتاج الحاج كذلك إلى الوفاء بالعقود والمعاوضات والمشاركات التي يجريها في حجه مع الناس ومع الرفقة ومع الشركات، مما يأتيه المرء في سفر الحج.

وسادسها: الصبر وإن كانت الآية التي معنا قد ذكرت الصبر، كما قال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ فكذلك ذكرته آيات سورة الحج في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [الحج: ٣٥] إلا أن الصبر لم يذكر في آيات سورة الأنفال والتي كان وصفهم فيها بكونهم مؤمنين حقًّا، فلم يذكر في صفتهم هذه الصفة بهذا الظهور وبذلك التحديد، إنما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢-٤] ولم يذكر المولى ﷻ فيهم هذه الصفة وهي: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [الحج: ٣٥] فكان المتبادر للذهن أن تذكر في صفات المؤمنين حقًّا، ولكن لم تذكر وذكرت في آيات الحج، فلماذا؟؟

لأن السياق في هذه الآيات من آيات الحج يحتاج إلى الصبر، ولأنه بغير الصبر لا يستطيع المرء أن يذكر الله تعالى وأن يصيبه الوجل عند ذكره، وأن يكون قلبه مشغولًا بذكره في حال المشقة التي هو فيها والتعب الذي يتحمله والازدحام الذي يعاني منه، والحر والشدة التي تغير رائحته وتغير منظره وتشعث شعره، وتجعله على هذه الهيئة

التي لا يحبها لنفسه في الأحوال العادية، لأن هذه الأمور تشغل القلب عن الذكر، وتشتت القلب بالتالي عن الوجل لله تعالى والخوف، وتضعف الخشية من الله تعالى والمراقبة له؛ لذلك جاءته هذه الآية لتصبره على هذا الحال، أن يكون ذاكرًا لربه، أن يكون خائفًا عند ذكره، أن يكون وجل القلب عند سماع اسم الرب جل وعلا، وفي نفس الوقت ألا تكون المشاق والخلطة بالخلق والأنكاد الكثيرة المترتبة على ذلك سببًا لأن يخرج عن ذكر ربه، أو أن يخرج عن عبادته، ويخرج عن تواضعه وإخباته وامتثاله لله تعالى، ولا أن يخرج عن مقصوده الذي قد جاء له وهو طلب المغفرة من الله تعالى وطلب العفو من الله جل وعلا؛ لذلك جاءته هذه الآية: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ [الحج: ٣٥].

ومن ناحية أخرى لتَذَكُّرَه الصبر على ما يلاقيه مما يمكن أن يقع في أيام الحج من الخشونة عليه، ومن سوء المعاملة له، ومن الغلظة، ومن هذه المواقف التي نراها تحدث، مثل: أن تسرق أمتعته، أن يسرق ماله، أن يدفع ليقع، أن يصاب في وجهه، أن يصيبه شيء في الجمرات في رأسه أو بدنه.

وقد ذكرت الآية الصبر بالوصف ولم تذكره بالفعل، فلم تقل «ويصبرون على ما أصابهم»، وإنما قالت: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ **فالصبر صار سجية تميزهم، وخُلقًا من أخلاقهم التي لا تنفك عنهم**، فصاروا صابرين على ما أصابهم.

وكذلك لم يذكر المولى ما هو الشيء الذي يصيبهم، ومعنى ذلك أنهم **صابرون على أي شيء يصيبهم كائنًا ما كان**؛ لأن الصبر صار شعارهم، ولأن الصبر صار عادة لهم، لأن هدفهم ومقصودهم وما يصبون إليه إنما هو أعلى وأجل وأعظم.

وإذا كان الأمر عظيما فالبذل له يكون عظيما، والعظيم رؤية الله تعالى في الآخرة، وإنما التقرب برؤية البيت وزيارته في الدنيا؛ لتكون دليلًا على هذه الزيارة وانتظارًا لها، فمن أراد ذلك فإنما يدفع فيه عظيما، ويبذل له عظيمًا، ويتحمل من أجله عظيمًا، لذلك يلزمك أن تكون من هؤلاء الذين تحقق فيهم قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [الحج: ٣٥] لأنه سيصيبك في العقود والأموال والركوب والنزول والانتظار والمشي والازدحام والطواف والسعي وعرفات ومنى والسيارات والعوادم والناس والأخلاق، ما يحتاج منك لأن تكون صابرًا، فلا يكون ذلك سببًا لأن تفرط في أوامر الله تعالى وفي أعمال الحج المشروعة وأن تقصر فيها، أو أن تتعلل وتعتذر بما لاقيت وبما يمكن أن تلاقيه بأن تقصر في أوامر الحج وأعماله ومناسكه التي هي سبب بر حجك وغفران ذنوبك!

واعلم أنَّ صبرَ الصابرين مع الخلق إنما يكون لله وبالله، كما ذكر الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] وكما قال: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ٧].

ذكر الله تعالى

وهو من أفضل الطاعات المقدمة في باب البر والحج والتي قال المولى ﷻ فيها: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥] وهذا المعنى من المعاني المهمة التي يفتقرها المؤمنون اليوم؛ لأنه لم يقل: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا﴾ [آل عمران: ١٩١]، وإنما قال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فهم في حالة زائدة على ذكر الله تعالى، يعني ليسوا ذاكرين لله تعالى فقط، **بل زاد عليهم أنهم مجرد أن يذكر الله تعالى عندهم تجد قلوبهم - والوجل هو الخوف المزعج المقلق** - فتجد قلوبهم قد انزعجت وخافت خوفا يقلقها عما هي فيه، وهذا هو المقصود الأول والأخير في أعمال الحج وفي بر المؤمنين، والذي يصل بهم إلى الدرجات العالية من الولاية لله تعالى.

فالمقصود هو كيف يذكرون الله تعالى فتضطرب قلوبهم وتنزعج فيكون ذلك سببا لأن يأتمر بالأوامر وينتهي عن النواهي وتنزعج أن يقصر أو أن يقع في النهي، ويمتثل إلى أمر الله ويسارع إلى مرضاته ويستقيم على أمره وأن يزهد في الدنيا وأن يقبل على الآخرة، وأن يستعد للقاء الله، فهذا هو الخائف.

ترى هل مقصود الشرع أن ينزعج القلب ويخاف ويقلق فقط، ليقال: إنه خائف ويبكى قليلًا وانتهى، ثم خرج ليعافس الدنيا ويقع في الغفلة ونسيان الرب والبعد مرة أخرى؟ **ماذا فعل بكونه خائفا؟** المقصود إذن ذلك الخوف المحمود الذي قد امتلأ منه

قلبه وأزعجه حتى كان هذا الإزعاج سببًا لأن يرجع إلى ربه جل وعلا وأن يقلع عن معصيته، وأن يسير إليه وأن ينظر إلى آخرته ليصلحها، وإلى زاده الذي قصر فيه، والذي لا يمكن أن يلاقي به ربه فيهيئه على أحسن ما يستطيع، وتراه كذلك قد اقترب أجله وأوشك أن يضع عصا الترحال في الآخرة؛ ليلاقي مصيره فإذا به وجل أشد الوجل، خائف أشد الخوف من هذا اللقاء، هلا استعد له وأعد له جهازه واستقام على أمر ربه وظهر عليه الشوق للقاء الله تعالى؛ لأنه ينتظر هذا اللقاء ومن ثم قال: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

وقد جاء قول النبي ﷺ لينبه على هذه المنقبة في الحج، فقال النبي ﷺ: «**أفضل الحج العج والثج**»[١٣٧]، والعج: يعني أن يرفع صوته بالتكبير يظهر ذكره لربه في هذه الأيام، والثج هو إراقة الدماء والهدي لله تعالى توسعة على الفقراء وبذلا للزاد ورجاء لثواب الله تعالى وعطائه.

ويتأكد هذا المعنى بأن نذكر **أفضل العاملين في كل عمل هم أكثرهم ذكراً لله تبارك وتعالى**، أفضل المجاهدين أكثرهم ذكرًا، أفضل المصلين أكثرهم ذكرًا، أفضل الصائمين أكثرهم ذكرًا، وقِس على ذلك كل الأعمال التي يأتيها المرء، فإن الله تعالى إنما قد أمر بهذه الأعمال كلها؛ لتكون ذكرًا لله تعالى حتى يكون كل عمل المرء وحاله وسكونه وحركته في ذكر الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ

(١٣٧) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٣ /٢٢٧)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة: حسن لشواهده، برقم: (١٥٠٠).

جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وهو المعنى الذي يفتقده المسلمون اليوم من أول تصاريف الحج إلى آخرها ومن أول أعماله إلى آخرها.

فكل شعيرة من شعائر الحج معمورة بذكر الله تعالى، وتأمل ما يبين لك ذلك إذا ما جاءت أيام الحج، **فإن أول ما أمر الله تعالى به كثرة ذكر الله تعالى في هذه الأيام**، كما نطقت به الآية الكريمة: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ [الحج: ٢٨] والأيام المعلومات هي العشر الأوائل من ذي الحجة التي يفرض فيها المرء الحج، فإذا نزلوا إلى عرفات إذا هم يذكرون الله ويلبونه ويكبرونه ويسبحونه ويحمدونه ويهللونه ويدعونه ويتضرعون إليه، فإذا نزلوا منه على الذكر أيضًا يقول: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨] فإذا نزلوا إلى منى قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣] ثم وهم يذبحون أضحياتهم وقرابينهم لله تعالى، قال جل وعلا: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ [الحج: ٣٦] حتى إذا انتهوا من حجهم وقضوا مناسكهم إذا بالله يذكرهم ويأمرهم: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وهو أثر الحج المقبول والذنب المغفور.

وقد جاءت هذه الآية الكريمة في هذه الموضع وكأنها تقول لهم: إذا كان أفضل الحآج أكثرهم ذكرا فإن ذكر الله تعالى لا يقف عند حد انتهاء هذه المناسك وتلك المشاعر، ولكن هذا الذكر ينبغي أن يكون شعارهم في حياتهم بعد ذلك، وليس الذكره باللسان فقط ولكن يوافقه **وجل قلبه عند ذكر الله تعالى وخوفه المقلق الذي يحمله على أن يمتثل لتلك الأوامر من أوامر الله تعالى في الحج، وإلى تلك الأعمال من أعمال البر** التي أمره بها المولى ﷻ حتى يكون ذلك كله دافعا لهذا الحاج إلى أن يأتمر بكل الأوامر، وأن ينتهي عن كل النواهي.

والعكس نراه اليوم، فقد شملت الغفلة أكثر أعمال الحجيج، سواء في السعي أو في الطواف، وفي عرفات، في نومهم، في بُدْنِهم، في هديهم، في ذبحهم، في نحرهم، في منى، في مزدلفة، كل ذلك علتهم فيه الغفلة التي أخرجتهم عن الذكر فضلا عن إخراجهم عن الوجل الذي هو مقصود الشرع.

وقوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ قد يتبادر إلى فهم السامعين اليوم أن ذلك متعلق بالحج فقط، لا، لأن المخبتين لا تفترق أخلاقهم في الحج عن غير الحج، فالآية بعموم لفظها، فهؤلاء المخبتون لما جاء الحج زادهم من هذا المعنى، إذ قد اتضح فعلا إخباتهم؛ **فإن المخبت لا يظهر إخباته إلا في حال يستدعي الإخبات**، كما أنَّ الحليم لا يظهر حلمه إلا في حال يستدعي الحلم، وهكذا، وكذلك في الذكر، فهم لا يذكرون الله تعالى في الحج فقط، ولكن: ﴿ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾.

وقد أمرهم بإكثار الذكر في الحج، وهي أهم صفة تجمع القلب على الله تعالى فلا يلتفت بها إلى غيره، **ولا يكون غير الله جل وعلا سببًا في بعدك وغفلتك عن الله تعالى وسببا في تقصيرك في أوامر الله تعالى**، لأن أعمال الحج تحتاج إلى الطاعة، وتحتاج إلى سرعة الامتثال، وتحتاج أثناء هذه المشقة وترك النوم والراحة واللباس والهيئة تحتاج إلى ذلك الخوف الذي يبعث إلى إتمام هذه المناسك على أحسن وجهها؛ إظهارًا لمحبة الله تعالى؛ إظهارًا لإقبالهم على الله تعالى وتعلقهم بالله تعالى؛ إظهارًا لتواضعهم واستكانتهم لله جل وعلا؛ إظهارًا لذلهم ومسكنتهم التي بها ينتظرون المغفرة، **إذ كيف ينتظرون المغفرة وهم على الغفلة**، وهم على هذا البعد من الله تعالى، وهم على عدم الاكتراث، فلا خوف ولا وجل من أن يردوا ولا يقبلوا من عدم الاكتراث بأن يتموا حجهم وعمرتهم على ما أراد الله تعالى، وعلى ما فعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟

فهذه الأخلاق نحتاجها ليس لبر الحج فقط، وإنما نحتاجها كل يوم ليتحقق المؤمنون بهذه الدرجة العليا التي أرسل بها النبي ﷺ، «**إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»(١٣٨) لا بد أن يتفكر المؤمنون في هذه الأخلاق لأن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿**إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ**﴾ [الانفطار: ١٣] فهذه أخلاق الأبرار الذين رباهم النبي ﷺ وهم أتباعه وأحبابه إلى يوم يبعثون، وهم السائرون على دربه والمتبعون لطريقته صلى الله عليه وآله وسلم، المقصر فيها مقصر في الدرجات العالية، المقصر فيها مقصر في كل أعمال الدين، ومن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين.

---

(١٣٨) أورده ابن عبد البر في التمهيد (٢٤/٣٣٣) من حديث أبي هريرة ﷺ، وقال: حديث صحيح.

فالموعظة المطلوبة هي: **كيف يصبح الناس وهمهم أن يكونوا أبرارًا؟** فإذا ما أصبحوا وهمهم ذلك لعل الله تعالى أن ينظر إليهم فيراهم على هذا الحال فيفتح عليهم ﷻ، ويوفقهم، ويسددهم، ويثبت قلوبهم وأقدامهم ويشرح صدورهم، ويعينهم ﷻ، ويقويهم، ويحفظهم وما ذلك على الله بعزيز.



الفصل الخامس:

خير أيام الدنيا

فكلما أقتربت أيام المغفرة، وأيام توزيع جوائز الرب على عباده المجتهدين الطائعين، الذين سمعوا فأجابوا، وأمروا فأسرعوا إلى تنفيذ الأوامر ، كلما ازدادت رحمة الرب سبحانه وتعالى، وزادت بركاته جل وعلا على المؤمنين، ليتهيئوا أحسن التهيؤ لهذه المغفرة، ولا يقصروا فيها، فتفوت سنتهم التي مضت بغير مغفرة، وسنتهم الآتية تكون كذلك على خطر؛ لأنه قد فتح لهم تلك المواسم العظيمة ليغفر لهم، وليعتقهم من النار، وليرجعوا بلا ذنب، ولا إثم، ولا خطيئة. فإن هم قصروا في ذلك إنما يقصرون في حق أنفسهم، لأنهم بإضاعتهم سنتهم، أضاعوا مغفرة الله جل وعلا، فمن أين يحصلون المغفرة بعد ذلك إذا لم يحصلوا المغفرة في وقتها ؟

جاءت هذه الأيام العظيمة، وهي الأيام العشر الأوائل من ذي الحجة، لتكون خاتمة أيام البر، ولأنها، كما سوف نبين، أيام يزيد فيها الأجر، كان لزاما على المؤمنين أن يزيدوا في اجتهادهم وبذلهم وأن ترتفع درجة إتقانهم لعملهم ومواصلة ليلهم بنهارهم، وأن يبذلوا أقصى وسعهم ويظهر جدهم واجتهادهم، ويظهر شوقهم وحنينهم إلى رحمة الله تعالى فضلًا عن الشوق والحنين إلى بيت الله ﷻ، ينتظرون تلك المغفرة في عرفات، ويطمعون في الوصول إلى البيت، والنظر إلى رب البيت في الموعد المضروب، كما ذكر النبي ﷺ.

يقول النبي ﷺ في هذه العشر: «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام. قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله، قال: ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء»[١٣٩] فهذا الحديث يبين قيمة هذه الأيام وفضلها حتى يتشوف المؤمنون لما عند الله تعالى من الفضل والكرامة والدرجة والمنزلة ليتسابقوا إليها وليتنافسوا فيها، ولينظروا النظر الصحيح فيما هم مقدمون عليه من أمر الله جل وعلا.

الاجتهاد في العشر، طريق تحقيق أجر الجهاد في سبيل الله

فهذه هي أيام الاجتهاد، والإقبال الشديد على الله تعالى؛ حتى يحصل المرء ما يبيض وجهه يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، وألا يعود خائبًا خاسرًا، **فلا تمر هذه الأيام دون أن يحس بها ولا يبذل لها، ثم يقول: إن شاء الله سأفعل بعد ذلك** وإن شاء الله سأحاول وإن شاء الله سأنتهز الفرصة القادمة أو سأنتهز الموسم القادم حتى يكون سببًا للمغفرة! فإذا بالموسم القابل أو بالفرصة الجديدة تأتي عليه وهو على نفس الضعف وعلى نفس السكون وهو على الميل إلى الدنيا وشهواتها وعلى الغفلة عن الآخرة والاستعداد لها، فتمر عليه كما مر عليه غيرها... **ويكون مضحكة للشيطان**... إذ غلبه الشيطان في المرة الأولى وأخرجه عن الجد والاجتهاد ووعده بالأماني الكاذبة... ثم إذا

---

(١٣٩) رواه البخاري (٩٦٩) كتاب الجمعة، باب فضل العمل في أيام التشريق. « مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ».

به يصل به في المرة التالية **إلى نفس المستوى من الأماني، لا يتعداها إلى العمل والبذل والاجتهاد وتعويض ما فاته**، وأن يستدرك تلك الأيام التي لا يعلم هل تأتيه مرة أخرى وهل تعود عليه سليما معافى يرجو رحمة الله ويخاف عقابه، أو أنه تأتيه وقد أغلق في وجهه باب الرحمة لإعراضه عنه أو تأتيه وقد كثرت أشغاله كما هي الحال اليوم، أو تأتيه على هذا الوهن والضعف في معاملة الرب ﷻ، على هذا الوهن والضعف في أخذ أوامر الله تعالى والإقبال عليها، إذا بها تأتيه وهو على هذه الحال التي لا يرجو بها رحمة ولا ينتظر بها مغفرة، ولا يحب أن يقابل الله تعالى عليها.

تراه قد حاول حينئذ أن ينفض عن نفسه هذه الأثواب العفنة من النوم والكسل والدعة وأن ينفض عن نفسه الميل إلى الدنيا والسكون إليها ونسيان الآخرة والغفلة عنها؟ أو أنه ما زال محبًّا لها مقبلًا عليها يحب شهواتها وينسى آخرته، ويستثقل المجاهدة ويستصعبها؟ إن أبأس أهل الدنيا - يعني أشدهم بؤسًا - إذا غمس في النعيم غمسة واحدة يوم القيامة يقال له: «**هل رأيت بؤسًا قط؟ فيقول: ما رأيت بؤسٌ قط**»[140]، ما رأى شقاء ولا تعبا ولا مشقة ولا نصبًا ولا سهرًا ولا جوعًا ولا عطشًا ولا شيئًا من ذلك كله إذ كل ذلك وجده مسطورًا في كتابه عملا صالحًا كما ذكر الله تعالى: ﴿**وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [التوبة: ١٢١].

(١٤٠) رواه مسلم (٢٨٠٧) كتاب صفة القيامة والجنة والنار.

فالعمل في هذه الأيام – وإن كان مفضولًا – فإنه يصل إلى مرتبة الفاضل بل قد يزيد عليه لشرف الزمان الذي ميز الله تعالى به هذه الأيام، فهذه الأعمال التي ينظر المرء إليها بقلة القيمة إذا بها تفوق هذه الأعمال الفاضلة الجليلة العالية، تفوق ذروة سنام الإسلام وهو الجهاد، كما جاء في الحديث: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال له: «دلني على عمل يعدل الجهاد في سبيل الله، قال: **هل تستطيع إذا خرج المجاهد غازيًا في سبيل الله أن تصوم لا تفطر وتقوم لا تفتر حتى يعود المجاهد. قال: لا يستطيع**»[141].

انظر لهذا الفضل العظيم الذي فتحه الله في هذه الأيام، هل يستطيع المرء أن يدخل بيته إذا خرج المجاهد في سبيل الله تعالى فيصوم فلا يفطر ويقوم فلا يمل لا ينام ولا يصيبه الكلال ولا الملل حتى يعود هذا المجاهد في سبيل الله؟ **من يستطيع ذلك؟ لا يستطيعه أحد**.

ولكن: **تستطيعه في هذه الأيام التي فتحها الله تعالى**، فالمجاهد في سبيل الله كالصائم القائم الخاشع القانت الراكع الساجد فانظر إلى هذه الدرجة التي بينها النبي ﷺ، والتي قد أكرم الله تبارك وتعالى بها عباده المؤمنين في هذه الأيام، فهذه الأعمال

(١٤١) أخرجه البخاري (٣/١٠٢٦ ، رقم ٢٦٣٣) . وأخرجه أيضًا : النسائي (٦/١٩ ، رقم ٣١٢٨) . ولفظه عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلِّمْنِي عَمَلاً يَعْدِلُ الْجِهَادَ قَالَ :« لاَ أَجِدُهُ ». ثُمَّ قَالَ فَقَالَ :« هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ الْمَسْجِدَ فَتَقُومَ لاَ تَفْتُرَ وَتَصُومَ لاَ تُفْطِرَ ». قَالَ : لاَ أَسْتَطِيعُ ذَلِكَ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : إِنَّ فَرَسَ الْمُجَاهِدِ يَسْتَنُّ فِي طِوَلِهِ فَيُكْتَبُ لَهُ حَسَنَاتٍ».

الضعيفة، توازي الجهاد، إلا جهادًا واحدًا استثناه النبي ﷺ لا يوازيه العمل في هذه الأيام، ألا وهو من خرج بنفسه وماله فلم يرجع، فهذا فقط الذي لا يوازيه شيء.

لذلك كانت هذه الأيام في هذه الدرجة الشريفة الخطيرة التي ينبغي أن يعظمها المؤمنون وأن يقدروا قيمتها وشرفها، فيختم بها أيام البر التي افتتحت بعد رمضان ليجدوا عاقبة ذلك ومغبته الحسنة في أن يغفر لهم وأن يصبحوا معيدين بمغفرة الله مسرورين برحمة الله يوم الحج الأكبر.

القيام بالأعمال الصالحة كافة

فلما قال النبي ﷺ: «**ما من أيام**» دل ذلك على أن **هذه العشر أفضل أيام الدنيا قاطبة**، فإذا سأل سائل قائلًا: ولا العشر الأواخر من رمضان؟ قال المحققون: ولا العشر الأواخر من رمضان، فمجموع هذه العشر من ذي الحجة تفضل العشر الأواخر من رمضان إلا ليلة القدر فإنها الليلة الوحيدة التي لا يعدلها ليلة ولا يقوم لها في العمل أجر في ليلة من ليالي الدنيا.

وانظر إلى هذا الثواب الذي يدل عليه هذا التحقيق من كلام أهل العلم ليبين قيمة هذه الأيام وفضلها، فعندما يقول النبي ﷺ: «**ما من أيام العمل الصالح**» **فإن العمل الصالح كما قال العلماء يشمل كل الأعمال الصالحة لا يستثني منها شيئا**، فكان كل عمل صالح فيها أفضل مما يعمله المرء في غيرها، فإن صام فيها كان الصيام فيها أفضل من الصيام في غيرها، وإن سبَّح وهَلل كان أفضل وأعلى من غيرها، إن قام كان القيام

أجلَّ وأعظم من غيرها، وإن تصدق كانت الصدقة كذلك أعلى ثوابًا وأعظم أجرًا من غيرها، إنْ وصل أقاربه، إن برَّ والديه، إن قام بعملٍ صالح لإخوانه، إن سار في مصلحة المسلمين، كل ذلك من الأعمال الصالحة أعظم مئات المرات من الأعمال في مثل تلك الأيام من أيام الدنيا.

وكذلك لما قال النبي ﷺ: « **العمل الصالح** » فكأن الشارع يريد لك التفتيش عن الأعمال الصالحة التي قد قصرت يومًا ما في تحصيلها، ، ويريد لك كذلك أن تشغل هذه الأيام بأي عمل صالح لا تقصر فيه، كأنه يقول: لا تعجز عن أي عمل صالح يمكن أن تأتيه في تلك الأيام، ولا تستثقله، ولا تقصر فيه، فإنك مهما كنت فإنك تستطيع أن تعمل عملاً صالحًا كائنًا ما كان هذا العمل، إن كان قليلاً فهو مضاعف الأجر، إن كان كثيرًا فزت بما يناسبه من ذلك الأجر الكثير.

لذلك **كانوا يؤكدون تأكيداً شديداً على صيامها وقيامها**، فقد ذكر أكثر العلماء استحباب الصيام والقيام فيها، وقد ورد عن النبي ﷺ قوله: «**فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد**»(١٤٢)، وكان ابن عمر وأبو هريرة - رضي الله عنهما - يخرجان في هذه في هذه الأيام العشر إلى السوق يُكبران لا يخرجهما إلا التكبير، **فيذكرون من غفل بما فيها من فضل ويرفعون فيها ذكر الله تعالى ليعُمَّ العمل الصالح جميع المؤمنين، ولترتفع الغفلة عنهم**، هذه الغفلة التي قد أصابتنا فلا تعظيم لهذه الأيام، ولا إجلال لها، ولا

---

(١٤٢) رواه الإمام أحمد في مسنده (٧ /٢٢٤)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

رفعًا لشأنها، ولا شيئًا من ذلك يُحِسُّه المؤمنون بقلوبهم فضلًا عن القيام بأعمالهم والاهتمام لها وتفريغ الوقت والجهد لتحصيل فضلها وثوابها وكأنها كبقية أيام الدنيا!!

وقد كان السلف الصالح يعظمون هذه الأيام، فكان سعيد بن جبير يجتهد في هذه الأيام حتى ما يستطيع أحد أن يقدر عليه، من شدة البذل الذي يبذله فيها، وكان يحب ألا تطفأ سروجهم في تلك الليالي العشر يعجبه أن يقوم الناس فيها، وأن يحيوا هذه الليالي لله تعالى يرجون الرحمة ويطلبون المغفرة وينتظرون الدرجة العالية من الله تعالى، وقد ورد فيما روي عن أنس وغيره: «كنا نعد في هذه الأيام، كل يوم بألف يوم إلا يوم عرفة فإنه بعشرة آلاف يوم».

وهذا التخصيص إنما يبين للمؤمنين هذه القيمة العظيمة لهذه الأيام وتلك الليالي فإن أُطلقت الأيام، كم قال صلى الله عليه وسلم :ما من أيام ، دخلت فيها الليالي تبعًا، وإذا ذكرت الليالي كما ورد في الأيام العشر في رمضان دخل فيها الأيام تبعا، **فكانت الأيام والليالي في هذه الأيام في هذا الوقت هي أشرف الأيام وهي أعظم الأيام وأفضل الأيام، درجة وثوابًا وأجرًا ورفعة ومنزلة وعملًا عند الله تعالى**، حتى إن العمل القليل فيها من ذكر الله تعالى لا يوازيه شيء، فإن خرج المجاهد في سبيل الله عشرة أيام ورجع فيها في هذه الأيام فإن الذاكر لله تعالى الصائم القائم فيها أفضل في هذه الأيام التي خرجها المجاهد في سبيل الله إلا ألا يرجع المجاهد بنفسه وماله.

فكأنه إذا خرج المجاهد خمسة أيام في تلك الأيام العظيمة وجلست مثلها في بيت الله تذكر ربك تصوم له وتقوم له وتصل ليلك بنهارك ترجو فيها الرحمة وتجتهد ذلك

الاجتهاد بعد أن قام بقلبك هذا الشاهد من شواهد الآخرة، ليدلك على ذلك الفضل وعلى ذلك العمل لتسارع له ولتجتهد فيه ولتتنافس مع المتنافسين في هذه الأعمال، فإن خمسة أيام تقضيها فيها أعظم من مثلها يقضيها المجاهد في سبيل الله ويرجع، **وإذا بك تحصل درجة المجاهد القائم الصائم الذاكر الخاشع الراكع الساجد.**

فإن صليت ركعتين قليلتين، ضعيفتين، مما نصلي، إذا بهاتين الركعتين أفضل من ركعتين في غيرهم من الأيام، في شوال، أو في رمضان نفسه، وانظر إلى تضاعف الأجر، وكلما تضاعف العمل تضاعف الأجر، فإذا كان اليوم العمل فيه بكذا وكذا وكذا من الأجر، فإن أقل عمل تعمله فيها فهو أفضل وأفضل وأفضل من نفس العمل في غيرها في نفس المدة التي تقضيها فيه.

لذلك ينبغي أن يكون يوم المرء كله في تلك الأيام مشغولاً بالطاعة، لا يرى نفسه في هذه الأيام وقد فرغ وقتًا لغير الطاعة، فضلاً عن أن يفرغه للمعصية أو أن يفرغه للغفلة، بل يومه كله مشغول، ولو قضى يومه وليله كله من أوله إلى آخره في الطاعة ما كان كثيرًا أن يحصل هذا الثواب وهذا الأجر.

لذلك كان السلف يجتهدون اجتهادًا لا يقدر عليهم فيه، يعني إن سئل أحدهم هل عنده بذل يستطيع أن يبذله بعد ذلك، لن تجد له؛ لا في صلاة، ولا في صيام، ولا في ذكر، ولا في بذل، ولا في كل عمل يمكن أن يأتيه.

وكانوا يستحبون أن يروا السُرج، يعني أن يروا الأنوار مضيئة بالليل، لتدل على قيام الناس، وعلى تهجدهم، وعلى صلاتهم، وعلى ذكرهم، وعلى دعائهم، وعلى تملقهم لربهم، إلى آخر ما يفعل المتعبدون المجتهدون في ليلهم إلى الله.

وها قد بقيت بفضل الله جل وعلا إلى هذه الأيام، ووصلتها صحيحًا، سليمًا، معافًى، تسمع فيها آيات الله، وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلممتمكنًا فيها من القيام بكل هذه الأعمال الصالحة. **إن قصرت حينئذ، فلا تلومن إلا نفسك**، لأنك حينئذ قد قصرت في أسباب نجاتك، وحمّلت نفسك ذنوب هذه السنين، وأتيت بها إلى الله تعالى، وأنت لست في حاجة إلى سيئات جديدة، وإلى ذنوب أخرى تحملها وأنت مسافر إلى الله تعالى.

إن الله سبحانه وتعالى قد فتح هذه الأيام ليخفف عنك كما ذكرنا سبحانه: ﴿ **يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ** ﴾ (النساء: ٢٨)، ومع ذلك يأبى هؤلاء المؤمنون إلا أن يتكاسلوا، ويتقاعسوا عن تحقيق هذه الأعمال الصالحة، أو عن التوبة من الأعمال السيئة، وكأنهم يودون أن يأتوا ربهم بتلك الأعمال الخسيسة، التي ما زالوا بها مبتعدين، مقصرين، غافلين، لا يعلمون سرعة سيرهم إلى الله تعالى، وأنهم أوشكوا أن يصلوا إليه جل وعلا، وأن ما معهم من زاد لا يبيض وجوههم.

إذا نظر الناظر إلى زاده الذي يلاقي به ربه جل وعلا، فنظر في عمله، وما يرتفع منه إلى الله، إن كان صادقًا مع نفسه، **علم تمام العلم أن هذا العمل لا يليق بالله تعالى، ولا يليق بأن يكون سببًا في نجاته، ولا يليق بأن يموت عليه**. من الذي يود أن يموت على

هذه الأحوال السيئة التي هو فيها الآن؟ لذلك كان هذا الفتح من الله جل وعلاوهذه الرحمة منه جل وعلا، وتلك الرأفة بالمؤمنين التي يسديها إليهم، حتى يخرجهم مما هم فيه، إلى أعظم مما يمكن أن يكونوا فيه من محبة الله، وطاعته، والإقبال عليه، والتجهز للقائه، الذي يحملهم حينئذ على أن يشتاقوا لربهم، وأن يفعلوا ما يكون سببًا لأن يختم الله لهم بخاتمة السعادة.

أيام المسارعة للاستجابة لأمر الله تعالى

فإذا كان الأمر على هذا الحال وجب عليك المسارعة إلى التزود من جميع الأعمال الصالحة، فإن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم لما سمعوا الآيات بالمسارعة إلى الله تعالى، ونزلت عليهم آيات التنافس في العمل الصالح والمسابقة إلى الله جل وعلا، علموا أنهم هم المخصوصون بهذه الآيات وهم أول المخاطبين بها، كما قال: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الحديد: ٢١]، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] إلى غير هذه الآيات المكرمات التي تنزلت على النبي ﷺ لتسوق المؤمنين إلى البذل والاجتهاد فسارعوا إلى تنفيذها وإلى المسابقة فيها وإلى التنافس عليها.

لما قال الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] جاء أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: قد علمت ما أنزل الله عليك، وإن أحب أموالي إليَّ «بَيرُحَاء»، وهو بستان عظيم كان على باب مسجد النبي ﷺ فكان يخرج ﷺ من الصلاة

فيدخل فيه يشرب منه ماء عذبا، قال هو أفضل أموالي قد جعلتها في سبيل الله، **هكذا كانت استجابتهم رضوان الله عليهم.**

وكذلك وجدناهم يتسارعون ويتسابقون في تحصيل هذه الأفضال والدرجات العلى والنعيم المقيم لأنهم إنما كانوا في الدنيا لا ليتسارعوا وليتنافسوا في تحصيل حظوظها الزائفة، وإنما كان هَمُّ كل أحد منهم أن يخرج في سبيل الله لا يرجع بنفسه ولا ماله، لذلك رأينا الآية الكريمة التي بينت هذا الحال ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢]، فكانوا يذهبون للنبي ﷺ يعرضون أنفسهم عليه... **ليجاهدوا في سبيل الله... ليقتلوا ولتقطع أيديهم وأرجلهم وليجرحوا في سبيل مولاهم ودينهم**، وإذا بالنبي ﷺ لا يجد ما يحملهم فلم يفرحوا بذلك كحالنا الذي نحن عليه، بل إذا هم يبكون، ليس كذلك فقط وإنما كما صورهم القرآن الكريم تفيض أعينهم، ليبين إقبالهم على ربهم ومحبتهم للموت في سبيل الله ولدرجاتهم العالية عند الله تعالى، وكذلك لتنافسهم فيما يقربهم إلى هذه الدرجات العلى والنعيم المقيم ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢].

ولما كان فقراء المسلمين على هذا الحال من عدم امتلاك ما يحملهم إلى الله تعالى لتُقطع رؤوسهم وتذهب مُهَجُهم وأرواحهم لله تعالى، إذا بهم يشكون للنبي ﷺ قائلين: «ذهب أهل الدثور بالأجور، يصومون كما نصوم ويصلون كما نصلي، وهم

فضل أموال منها يجاهدون ويتصدقون »[١٤٣] فقال لهم النبي ﷺ: «**أَوَلَا أدلكم على عمل إذا عملتموه سبقتم به من كان قبلكم**» إلى آخر الحديث: «**أن تقولوا دبر كل صلاة أن تسبحوا الله تعالى ثلاثا وثلاثين وأن تحمدوه ثلاثا وثلاثين وتكبروه أربعًا وثلاثين**». أي ذهب الأغنياء بالأجر، ونحن لا نملك ما نحصل به هذه الأجور، فماذا نفعل؟

والمقصود من سوق هذا الحديث، كيف أن هؤلاء لم يستسلموا لما هم فيه من عدم وجدان ما ينفقون في سبيل الله ومن عدم وجدان ما يقتلون عليه في سبيل الله، وإنما كان يؤرقهم ألا يجدوا ما ينفقون، وكان يبكيهم ألا يجدوا ما يكون سببا لمحبة الله لهم ورفعة درجاتهم عند ربهم وخروجهم عن هذه الدنيا الزائلة مسارعة للقاء الله وشوقًا إليه، لذلك جاءوا إلى النبي ﷺ يشكون له ذلك.

لم يكونوا على هذه الدرجة من الغفلة والدعة والركون إلى الدنيا وشهواتها ونسيان الآخرة والاستعداد لها ومن عدم الاستقامة على أمر الله تعالى ومجاهدة النفس على القيام بأوامر الرب جل وعلا، وبذل كل نفيس وغال حتى يحصلوا ما أمر الله تعالى به، ويزيد على ذلك التنافس فيه، والمسارعة أيهم يكون الأقرب إلى الله جل وعلا، أيهم يكون الأحب إلى الله.

(١٤٣) رواه البخاري (٧٩٨) ومسلم (٩٣٦) وأبو داود (١٢٨٦).

ولا تكون توبة المرء صحيحة حتى يتحقق فيها شرطها المهم، وهو الكف عن هذه الأخلاق الرديئة التي كانت سببًا في بُعد المرء عن الأخلاق العالية التي تجعله من أقرب الناس وأحبهم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وطريق التخلي عن هذه الأخلاق الرديئة هو طريق مجاهدة النفس.

مجاهدة النفس على التخلي عن الأخلاق الرديئة

فلا بد أن تفتش في نفسك ، فتنبذ ما كان من أخلاق مرذولة، **وما كان من أخلاق حسنة أنت مقصر فيها ، بدأت في مجاهدة نفسك على التخلق بها**، والسير بها إلى الله تعالى، عالمًا بأنه كلما ازداد نصيبك من الأخلاق ازداد نصيبك من الدين.

لا بد إذن أن ترفع لهذا الحال راية المجاهدة ، لتتخلص من تلك المساوئ وتتصف بتلك المحاسن، فكلما اتصفت بها من خلق يوشك أن تنتصر على نفسك، ويوشك أن تحقق أسباب نجاتك، ويوشك أن تكون عنصرًا يؤمل في نصر دين الله تعالى.

أما أن يبقى المؤمنون على هذا الحال السيئ وتلك الأخلاق الرديئة التي هم فيها، فأنى يقبل عملهم أو يغفر لهم؟ وأنى يصلون إلى هذا الشوق الذي يحملهم إلى بيته أو الذي تتحقق به مغفرة الله لهم؟ وأنى يصلون بعد ذلك إلى أن يرفعوا راية الهجرة وراية الجهاد وراية البذل؟

إنهم إذا لم يفكروا في إصلاح أنفسهم بهذه الطريقة، فإن الطريق مقفل أمامهم، وسيكون أطول مما يتخيلون، وليس ثَمَّ طريق آخر يمكن أن يسلكه المرء حتى يصل إلى هذه الأخلاق التي أمر بها الشارع ويحبها النبي صلى الله عليه وسلم للمؤمنين.

لذلك، فمن أراد النجاة **فعليه مجاهدة نفسه للتخلي عن هذه الأخلاق المرذولة،** فيمسك لسانه في الدنيا، ويمسك قلبه عن الحسد والغش والحقد، ويمنع قلبه عن طول الأمل والكبر، ثم يمنع ظاهره كذلك من هذه الأخلاق ؛ فيمنع لسانه، وبصره، وسمعه، وبطنه، ورجله، ويده، أن تكون سببًا لرداه وهلاكه عند الله تعالى.

بعد ذلك يظهر أصحاب الأخلاق الحسنة؛ المتواضعون ، ويظهر كذلك الكرماء والسمحاء، ويظهر أصحاب سعة الصدر، ويظهر الباذلون لأموالهم وأنفسهم، ويظهر المتحملون للأذى الذين أخذوا حسنات غيرهم أو تخففوا من سيئاتهم، فدخلوا الجنة.

ومن ثم كانت التوبة من هذه الأخلاق هي المحك الرئيسي لما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون السائرون إلى الله تعالى؛ لأن المرء تخلق بأي خلق من هذه الأخلاق الرديئة، بأنه لو شتمه شاتم أو اغتابه مغتاب، إذا به ينقلب على عقبيه، فلا يتحمل الأذى ولا يكف الأذى، ويحاول أن يؤذيه كما وقع منه الأذى، ويثأر لكرامته، ويقول: قد فعلت له كذا وكذا ثم كان رد الجميل أن يفعل في كذا وكذا وأن يغتابني وأن يتطاول علي، ويقابله بمثل هذه الأخلاق، فكيف يدعو غيره إلى الله تعالى وهو على هذا الحال ؟ هذا هو امتحانك اليوم في كل قضايا الأخلاق التي ينبغي تتخلق بها.

لا يمنعك حينئذ كراهة الكاره، ولا منع المانع، ولا يمنعك أذى المؤذي، في أن تكون على الأخلاق الحسنة وأن ترد بأحسن منها؛ كما ذكر المولى جل وعلا: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ (المؤمنون: ٩٦) **لم يقل ادفع السيئة بالسيئة، لم يقل من شتمك اشتمه كما شتم، وكما ضرب يضرب**، كلا، لأنك حينئذ تبقى كما أنت مرذول الأخلاق بعيدًا عن النبي صلى الله عليه وسلم.

علمت طريقك، طريق المجاهدة للتخلص من الأخلاق المرذولة، عاهدت الله على السير في هذا الطريق، وأن لِتُوفي لله تعالى، **ومن وفى لله تعالى فإن الله يوفي له جل وعلا،** فلا بد حينئذ أن يكون خلقك على هذه الدرجة التي تود بها أن يغفر الله لك ، وإن غفر لك بها، فلا حاجة لك بعد ذلك إلى الناس جميعًا، وإن غفر لك وكفر سيئاتك فقد فزت فوزًا عظيمًا كما ذكر المولى سبحانه وتعالى.

<u>دور الأخلاق السيئة في تشويه صورة الدين</u>

وهي المسألة الخطرة التي ينبغي أن يتنبه إليها المؤمنون، لأن البعض يظن أنه عندما يأتي بالأخلاق السيئة، إنما يفعل ذلك لدين الله، ولا زالت نفوسهم تجادلهم وتمنعهم من أن يكونوا على الأخلاق الحسنة، وهم يظنون أن ذلك لدينهم وآخرتهم، وما هي إلا مصيبة اتباع الشيطان والهوى والنفس، التي ذكرها العلماء.

مختصر القضية: لا يظن أحدٌ أن الأخلاق السيئة تأتي بخير. **إن رفع راية دين الله تعالى لا ينتظر منك كذبًا و لا بغضاء، ولا ينتظر منك ظلما ولا قطيعة ولا غيبة ولا نميمة**

ولا سخرية، فلا تظن أن هذا الدين ينتظر منك هذه الأخلاق حتى ينتصر بها، أو حتى ترتفع درجتك عند الله تعالى، فتُسند هذه الأخلاق السيئة إلى الدين. من الذي قال: أن تظلم إخوانك، أو أن تعاملهم بجفاء وقسوة، أو أن تتطاول عليهم، أو أن تسخر منهم، أو أن تظلمهم، أو أن تغتابهم، أو أن تنم بينهم وبين غيرهم، أو غير ذلك، إنما يحدث لدين الله تعالى ؟! **لا**، دين الله مستغن عنك وعن هذه الأخلاق السيئة، وقد أبلغك دين الله أنه ليس في حاجة إلى هذه الأخلاق ليرفع درجتك أو لينتصر على الكفرة، وإذا كان سينتصر على الكفرة بالأخلاق السيئة فالأولى أن ينتصر بالأخلاق الحسنة، فتعلم يقينًا أن تلك الأخلاق السيئة لا يريدها الله تعالى منك.

ومثال ذلك، هذا الذي يسلك الطرق الملتوية حتى يُحصل تأشيرة الحج، فيدفع الرشوة لذلك. **لا**، الله جل وعلا في غنى عن أن ترشي لتصل إليه، أو أن تفعل مخالفة من هذه المخالفات. **إن أراد الله لك أن تصل إلى بيته ستصل**، ولتصل حينئذ إلى بيته جل وعلا على أحسن حال بغير مخالفة للشرع، وبغير خروج عن حدود الله جل وعلا.

لعل هذه الموعظة أن تكون سببًا لإصلاح المرء نفسه فيما بينه وبين الله، وبينه وبين إخوانه، وبينه وبين العالمين من أهل الإيمان؛ ليكون هذا الصلاح سببًا لذلك البر الذي يأخذ بيده إلى زيارة بيت ربه، أو الذي يرفع درجته فيكون من الأبرار، كما جاء في اللفظ الجميل: ﴿ **إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ** ﴾ (الانفطار: ١٢)، أن يصير من هؤلاء الذين مدحهم الله تعالى، وأثنى عليهم، ووعدهم سبحانه وتعالى أعظم الوعد فيما يحققون من هذا البر بإخوانهم وأهلهم ووالديهم ؛ لأنه إن لم يتعلم البر اليوم، فلن يتعلمه بعد

الله تعالى، ووضح عليهم التواضع والانكسار للرب جل وعلا، وتبدلت أحوالهم وتحسنت علاقتهم مع لله جل وعلا.

لأن المرء إذ ما قضي وقته ظاهرًا وباطنًا في تحصيل تلك التعبدات لله تعالى إلا ويتغير حاله، ويتغير شأنه، ويصير شخصًا جديدًا مع الله جل وعلا، يوشك أن يكون من الذاكرين الله تعالى كثيرًا والذاكرات، من الخاشعين، من القانتين، من الصادقين، من الراكعين، من الساجدين، إلى آخر ما ذكر المولى سبحانه وتعالى في صفات من ظهرت عليهم آثار رحمة الله جل وعلا.

وحين تبدو هذه الآثار على العبد فإنه يكون حينئذ أهلاً لتنزل رحمة الله، وأهلاً لنشر دعوة دين الله، وأهلاً لأن ويجهز جهاز سفره إلى الله؛ ليلاقي الله جل وعلا، كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم: « **إذا أحب الله تعالى عبدًا استعمله، قيل: وما استعمله؟ قال: يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه**»[146] فهذا هو التوفيق لتلك الأعمال الصالحة التي يوشك إذا جاء الأجل أن يُرى المرء عليها، فيختم له بأعظم خاتمة، **خاتمة النجاة والسعادة عند الله تعالى**.

وهذا الحال من مقصودات الشرع التي ينبغي ألا يفرط فيها المرء، إن فرط فيها - وهي تلك الحال التي نرى أنفسنا عليها- وجد نفسه على الحال التي وجد نفسه عليها

(١٤٦) أخرجه الإمام أحمد (٣/١٠٦ ، رقم ١٢٠٥٥) ، والترمذي (٤/٤٥٠ ، رقم ٢١٤٢) ، وقال : حسن صحيح ، والحاكم (١/٤٩٠ ، رقم ١٢٥٧). ولفظه (إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ قيل كَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ قال يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قبل موته ثم يقبضه عليه).

بعد رمضان، من العودة لسيرته الأولى، من الغفلة عن الذكر، وترك الصيام والقيام، والتقصير في العمل الصالح، بل انفرط عقده، وشملته الغفلة، وصار مبتعدًا، كأن لم يكن في رمضان صيام وقيام وذكر.

هذه الحالة السيئة التي نراها بعد رمضان، تحل علينا كذلك إذ لم يستغل المرء هذه الأيام في تلك الرحمة ليحصلها، وفي تلك البركة لتشمله من الله جل وعلا، يوشك أن يخرج بعد هذه الأيام من أعظم أيام الدنيا عائدًا إلى ما كان فيه من تقصير وغفلة، ومن بُعد وركون وتكاسل عن أوامر الشرع مرة أخرى، لم تظهر عليه آثار المغفرة، ولم تظهر عليه آثار رحمة الله جل وعلا به في تلك الأيام التي قد ملأها المولى سبحانه وتعالى ثوابًا وأجرًا بتلك الأعمال الصالحة التي إن قَلَّت مهما كانت لها ثوابها، ولها مضاعفات هذا الثواب.

والنقطة الثانية التي يخرج بها المرء، وهي كذلك من مقصودات الشرع، قوله: « **قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله، قال: ولا الجهاد في سبيل الله** »، وهو الجهاد. فكأنك بعد هذه الأيام خرجت مجاهدًا، قد تحققت بهذه الدرجات العالية التي يحصلها المجاهد في سبيل الله، مع أنك لم تجاهد ولم تحدث نفسك بالجهاد، ومن مات حينئذ يموت على شعبة من النفاق.

ففتح الله تعالى لك بابًا تتعلم منه المجاهدة، وتصير به مجاهدًا لله تعالى، وهو بابٌ البذل فيه قليل، ورحمة الله تعالى فيه كثيرة، وأنت محتاج إلى أن تصدق الله تعالى

ليصدقك المولى جل وعلا، لتكون على هذا الحال الذي تعد نفسك به بعد ذلك مهاجرًا في سبيل الله مجاهدًا في سبيله .

بمعنى أنه إذا خرجت على هذا حال المجاهدة وأجر المجاهد، الذي بينه النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه يوشك حينئذ أن تقوى عزيمتك، وأن ترتفع همتك، **وأن تقابل كل عمل تأتيه حينئذ بهذه الهمة والعزيمة القوية**، فلا يستعصي عليك شيء بفضل الله جل وعلا، وبما أهلك الله تعالى فيه من الرحمة، وبما أهلك الله تعالى به من الثواب والأجر، وبما نزل الله تعالى عليك به من المغفرة، فإنك حينئذ تخرج وقد تقويت واستقويت بالله جل وعلا وبما آتاك في هذه الأيام على أن تواصل السير إليه جل وعلا، وعلى أن تديم هذا السير، وعلى أن تتحمل تبعات هذا السير، وأن تحمل لواء الجهاد في هذا السير إلى الله جل وعلا.

هؤلاء القاعدون الذين لا جهاد وراءهم ، كيف يكونون مجاهدين؟ لقد فتح لهم الله جل وعلا هذا الطريق ويسره لهم، وخففه عليهم، وبارك لهم فيه، وضاعف لهم فيه الأجر؛ ليكونوا محصلين له بهذه الأعمال الضعيفة، وبتلك النوايا الحسنة، وليخرجوا وقد تغير حالهم من الضعف والاستكانة، والنوم والكسل، إلى المجاهدة وإلى انتهاز فرصة العمر القليلة لتحصيل كل مل يمكن أن يحصله المرء ليكون على أعظم حال يرجو بها لقاء الله جل وعلا.

وهذا من رحمة الله تعالى بأولئك المؤمنين، الذين لم يحصلوا شيئًا، وجاءهم الإسلام وهم نائمون، لم يبذلوا له، ولم يجاهدوا في سبيله، ولم يرفعوا رايته، ولم يتركوا أموالهم

وأولادهم وأوطانهم في سبيله، جاءتهم هذه الأعمال ليحصلوا تلك الدرجات بهذه السهولة، وبتلك الأعمال الخفيفة، وبرحمة الله من قبل ومن بعد.

المقصر فيها إذًا مقصر في تلك الدرجة التي لا يستطيعها أحد، كما بينا: « **هل تستطيع أن تدخل مسجدك فتصلي لا تفتر وتصوم لا تفطر؟ قال: لا** » (١٤٧) وأنت تستطيع أن تدخل مسجدك فتحقق فيه أيامًا، أعظم من أيام جهادك في هذه العشر، فلو جلست هذه العشر في مسجدك تقوم وتصلى ، فكأنك حزت درجة الجهاد، حزتها وانتقلت بها إلى الله تعالى بعد هذه الأيام، كنت مجاهدًا، كتبت سجل المجاهدين، عند الله جل وعلا.

لذلك لما سمع النبي صلى الله عليه وسلم من يدعو ربه أن يصيب هذه الدرجة العالية والمنزلة الرفيعة، إذا بالنبي يبشره بأنه: «**إذًا يراق دمك ويعقر جوادك**» (١٤٨) وهذه

---

(١٤٧) أخرجه البخاري (٣/١٠٢٦ ، رقم ٢٦٣٣) . وأخرجه أيضًا : النسائي (٦/١٩ ، رقم ٣١٢٨) . ولفظه عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ –صلى الله عليه وسلم– فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلِّمْنِي عَمَلاً يَعْدِلُ الْجِهَادَ قَالَ :« لاَ أَجِدُهُ ». ثُمَّ قَالَ فَقَالَ :« هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ الْمَسْجِدَ فَتَقُومَ لاَ تَفْتُرَ وَتَصُومَ لاَ تُفْطِرَ ». قَالَ : لاَ أَسْتَطِيعُ ذَلِكَ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : إِنَّ فَرَسَ الْمُجَاهِدِ يَسْتَنُّ فِي طِوَلِهِ فَيُكْتَبُ لَهُ حَسَنَاتٍ».

(١٤٨) رواه أحمد (٣/٣٠٠ ، رقم ١٤٢٤٨) ، والدارمي (٢/٢٦٤ ، رقم ٢٣٩٢) ، وأبو يعلى (٤/٦٢ ، رقم ٢٠٨١)، والطبراني في الأوسط (٢/٥٣ رقم ١٢٢٥) . وأخرجه أيضاً : الطبراني في الصغير (٢/٢٤ رقم ٧١٣) . قال الهيثمي (٥/٢٩٠) : رواه أبو يعلى ، والطبراني في الأوسط ، والصغير ، ورجال أبي يعلى ، والصغير رجال الصحيح ، ورواه أحمد بنحوه . ولفظه (عنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما

الدرجة العالية قد فتحها الله جل وعلا هذه الأيام ليحصل ثوابها وأجرها المؤمنون المتقون؛ ليفوزوا بعد ذلك بمغفرة الرب في عرفات، وليخرجوا وقد أنيرت قلوبهم، واستنار طريقهم إلى الله جل وعلا، واتضحت لهم معالم السير إلى ربهم جل وعلا ليواصلوا سيرهم إلى إليه سبحانه وتعالى.

أيام الحسم في اختيار الآخرة

وأخيرًا، فمن أراد من أهل الإيمان من ذلك شيئًا فلا بد أن يكون له اختيار واضح، وهو اختيار الآخرة.

إن تردد أهل الإيمان بين اختيار الدنيا واختيار الآخرة وهذا التنازع في القلب بينهما إذا لم يُحسم في اتجاه الآخرة وطلب الله تعالى وأن يكون مقصودهم في هذه الدنيا هو رضا الله جل وعلا عنهم فإنهم لن يحصلوا شيئا في الدنيا ولا في الآخرة.

إن الله جل وعلا لا يرضى بالشركة في قلب المؤمن بين ربه وطلبه وبين طلب الدنيا وغيره، فإن طلبت الله تعالى وغيره فانتظر ما نحن فيه من تلك الحالة السيئة وإذا كان قصدك وطلبك الآخرة كما ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**مَنْ أصبح والآخرة همُّه جمع الله تعالى عليه شمله، وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن أصبح**

قَالَ جاء رَجُلٌ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الشُّهَدَاءِ أَفْضَلُ؟ قَالَ :« أَنْ يُعْقَرَ جَوَادُكَ، وَيُهْرَاقَ دَمُكَ ».

والدنيا همه فرَّق الله تعالى عليه شمله وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له»[149]، ليستيقن المرء طريق الله.

فلا بد حينئذ أن يحسم المؤمنون اختيارهم لله تعالى، لأنهم إن اختاروا ربهم واختاروا نبيهم واختاروا سلوك الآخرة، حينئذ يبارك لهم في سعيهم ويبارك لهم في قلبهم ويبارك لهم في ظاهرهم وباطنهم ويبارك لهم في أقوالهم وأعمالهم ويهديهم ربهم ﷻ بإيمانهم فلم يكن المرء ليختار ربه ﷻ والرب جل وعلا، ولا يلقي عليه حمايته وعنايته، ولا ينزل عليه بركته ورحمته؟! لا يكون هذا أبدا، لأنه في حاله تلك قد صار من أهل الله تعالى وخاصته، وأهله وخاصته هم محل رحمته وعنايته ومحل بركاته ﷻ ومحل دفعه ﷻ ومحل ولايته وكرامته ومحل توفيقه ومحل كل خير منه ﷻ، لما اختاروا ربهم اختارهم ربهم، وكان اصطفاء الله تعالى لهم، فاجتباهم إليه وحفظهم ﷻ.

وليعلم المؤمن المسكين المتشكك أنه باختياره الآخرة لن تضيع عليه الدنيا بل على العكس كما ذكر النبي ﷺ: «**من أصبح وهمه الآخرة**» إلى أن قال: « **أتته الدنيا وهي راغمة** »[150] **فلن تضيع عليه الدنيا باختياره الآخرة**، بل على العكس تضيع عليه الدنيا والآخرة إذا اختار الدنيا إذا اختار الدنيا ضاعت الآخرة وهو لن يحصل من الدنيا شيئا بل سيخرج ويتركها، وحينئذ لم يحصل الدنيا ولا الآخرة.

---

(١٤٩) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٤/٢٧١): إسناده جيد.

(١٥٠) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٤/٢٧١): إسناده جيد.

لذلك قال الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩]، وهذا هو السعي المشكور عند الله جل وعلا الذي يشكر عباده فيثيبهم عليه ويزيدهم منه؛ لأن السعي المشكور يعني السعي الذي زاد الله تبارك وتعالى عباده منه، كما قال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] فسعيهم ذلك سعي في محل الزيادة من الله تعالى، وقتا وجهدا ومالا وبدنا وصحة وولدا وراحة ونعيمًا في الدنيا وسعادة في الآخرة كما قال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤].

حاول إذن في تلك الأيام أن تستخلص منها العبرة، وأن تقوم فيها بهذه الموعظة لتكون سبيلا لتنزل تلك الرحمة والمغفرة وسبيلًا لأن يوصلهم إلى بيته، وأن يكونوا من أهل التقوى، وأن ينتقلوا إلى حال أحسن، يود المرء أن يكون فيها مع الله تعالى.

فالمرء مطالب حينئذ أن يحيي ليله، لا يُطْفِئ سراجه، وأن يصوم يومه لا يفطر، وأن يديم ذكر الله تعالى لا يغفل، فيكثر من التسبيح والتهليل، ويكثر من الصدقة والبذل والإحسان إذ ذلك طريق البر كما ذكرنا في شرح معاني البر السابقة، وهكذا في كل الأعمال كما ذكر النبي ﷺ: «**ما مِن أيام العمل الصالح**» فكل عمل صالح فيها إنما هو في ميزان الزيادة عند الله تبارك وتعالى ولا يعدله حتى الجهاد في سبيل الله.

فها قد فتح لهؤلاء القاعدين المتكاسلين بابًا من أبواب الجهاد يبذلون فيه مالهم ووقتهم وجهدهم؛ ليحصلوا هذه الدرجة العالية درجة الصائم القائم الخاشع الراكع الساجد القانت، كما ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهي مسئوليتهم العظيمة في تلك الأيام حتى يرفعوا عن أنفسهم وعن أهل الإيمان البلاء النازل الذي يزداد يوما بعد يوم على المؤمنين في دينهم وأحوالهم وتصرفاتهم وأحكامهم، ليروا بذلك **أن الله إنما يفعل ذلك بهم ليسوقهم مرة أخرى للتوبة والعمل والصالح ليرفع عنهم ما هم فيه**، لا يغفلون أبدًا عن أن البلاء ما ينزل بهم إلا بذنب وما يرتفع إلا بالتوبة، فليجددوا هذا العهد مع الله تعالى، وليقدموا بين يدي أعمالهم تلك التوبة الصادقة النصوح عَلَّ الله تعالى أن يرفع ما نزل بهم، لأن ما نزل بغيرهم يوشك أن ينزل بهم، عياذًا بذلك من الله تعالى، فها قد علم كل أحد مسئوليته بينه وبين ربه ولينظر كيف يلاقي الله تعالى بها.



الفصل السادس:

يوم عرفة

جاء يوم عرفه بعد هذه الأيام التي منحها الله للمؤمنين فلم يَعْبَؤُوا بها وأعرضوا عنها، ووهبهم فيها المزيد من ثوابه وجزيل عطائه، فإذا بهم يعملون شيئا ويقصرون بقية الوقت وكأن الآخرة ليست على بالهم وكأنهم لن يلقوا الله فيسألهم ﷻ عما قدموا وأخروا وعما فرطوا في جنب الله جل وعلا! **ولو أخذوا الأمر بجد كما يأخذون أعمال الدنيا لتغيرت الأحوال**، ولارتفع ذلك البلاء ولقل ذلك الشؤم النازل على المؤمنين بسبب معصيتهم وغفلتهم وبعدهم عن الله تعالى.

النبي ﷺ قال: «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه العشر. **قالوا: ولا الجهاد؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء**»[١٥١] **من الذي خرج منا بنفسه وماله فلم يرجع بشيء؟**

دعك من هذه من الذي جاهد على عبادة ربه ذكرًا وتسبيحًا وتحميدًا وتهليلًا وقيامًا وصيامًا وقراءة للقرآن وتصدقًا وعتقًا لنفسه من النار؟ ولكن حتى إذا أوشكت النتيجة أن تظهر إذا به يحاول أن يلملم نفسه وأن يذكر شيئًا لربه وأن يقرأ شيئًا من كتابه، أفبهذا يحصل شيئًا من نتيجة يرجوها أو من عاقبة يطلب بها النجاة؟! فهلا

(١٥١) سبق تخريجه.

حصل المرء شيئًا من ذلك في تلك الأيام حتى إذا جاء يوم عرفة شهدت هذه الأيام له في صحيفته فيُغفر له.

ترى هل يستوي من بذل وقته وجهده، وخرج مجاهدا في أيام البر هو ومن قصر وفرط ونام وغفل وتكاسل حتى إذا أتي يوم عرفة ذكر شيئا قليلا ضعيفا أو صامه أو قامه أو فعل فيه بعض أعمال الإيمان، وهو قد أضاع الأيام الثمانية الأولى؟ تراه يحصل تلك الدرجة من المغفرة التي قال النبي ﷺ فيها: «**أَحْتَسِبُ على الله أن يكفر ذنوب السنة الماضية والسنة الآتية**»(١٥٢)؛

نعم فضل الله تعالى واسع، ولكن الأسباب التي رتبها الله تعالى على الأعمال الصالحة لا توازي هذه الأقوال الرديئة ولا هذه التصرفات التي نراها في أحوالنا الضعفية التي نستقبل بها أيام المغفرة والرحمة، فهل من كان زاهدًا في تحصيل أسباب المغفرة يفوز بها؟ كيف يكون ذلك؟

فمن لم يقدم لنفسه قبل عرفات، كيف يستوعب قلبه الطاعة ويلين لها ويخبت لها ويقوم قيامًا ويصوم صيامًا ينتظر فيه موعود الله تعالى بالمغفرة في عرفات؟

أبينَ يوم وليلة يصير المرء تقيًّا ورعًا ذاكرًا قائمًا قانتًا يستحق هذه المغفرة أو أن ذلك إنما هو بذل ومجاهدة كما قال تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ**﴾؟ إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا، فهل الذي قصر في تلك الأيام وجاء في يومه الأخير يحاول أن يدرك شيئا ما، كمن بذل فيها عند الله تعالى

(١٥٢) رواه مسلم (١١٦٢) كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر

وسعى واجتهد يرجو رحمة الله ويخشى عذابه ويعمل على الخوف والرجاء ويخاف ألا يتقبل الله تعالى منه بعد ذلك العمل، كما قال تعالى في حال المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، فهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ويخافون ألا يتقبل منهم فقد جمعوا عملًا وخوفًا ونحن قد جمعنا كسلًا وبعدًا وتفريطًا وأمنًا وكأننا قد أخذوا صكوك المغفرة من الله تعالى!!!

ويوم عرفة هو أفضل أيام البر، فهو اليوم الذي أكمل الله تعالى فيه الدين كما قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، قال يهودي لعمر رضي الله عنه: لو نزلت فينا هذه الآية معشر اليهود لاتخذناها عيدا قال عمر: أنا أعلم متى نزلت وأين نزلت، نزلت يوم عرفة على النبي ﷺ في آخر ساعة وهو واقف بعرفات يوم جمعة. فأكمل الله جل وعلا فيها الدين وأتم عليهم النعمة ورحمهم رحمة واسعة.

وإذا كان الدين قد أُكمل حينئذ وبلغ أوجَه وكماله، لم يكن بعد الكمال إلا النقصان الذي يبكي له أهل الإيمان، وهو ما جعل عمر حين نزلت هذه الآية يبكي؛ لأنه يقول إذا كمل هذا الدين لم يبق بعد ذلك إلا أن يبدأ في التناقص كما هو الحال.

فبدأ الدين في التناقص حتى وصل بنا الحال إلى **أن أصبحنا أعلى أولئك في نقص الدين ونقص الهمة ونقص العزيمة ونقص بلاد المسلمين وانتقاص أطرافها وانتهاك البلاد والعباد** بما نحن فيه من تقصير وبلاء على النفس وعلى الدين وعلى الإيمان وعلى المؤمنين، ولم يحاول أحد أن يدفع شيئا، وإن دفع فدفعٌ بسيط ضعيف لا يقاوم ما نزل

من الكرب والخطب وإن دفع لا يستمر في دفعه، وإن استمر انحلت عزيمته مرة أخرى، وعاد إلى غفلته وشهواته فبأي هؤلاء يقوم الدين؟ وبأي هؤلاء ترتفع رايته؟ وبأي هؤلاء يعود إليه مجده وسيادته؟ دعك من ذلك...بأي هؤلاء يُرحم أهل الإيمان؟ دعك من ذلك... بأي هؤلاء تكون نجاتهم عند الله تعالى؟

ومع ذلك فحديث عرفات لا ينبغي أن يهمله المرء ويضيعه مع ما ضيع، ولكن يحاول **أن يكون عرفات بداية لاجتهاده وبذله**، أن يكون عرفات بداية لإقباله على ربه، أن يكون عرفات بداية لتعلقه بالله تعالى ومحبته له، أن يكون عرفات بداية لمزيد العبادة والسلوك إلى الله تبارك وتعالى، أن يكون عرفات بداية شدة الذكر وقراءة القرآن والقيام والإقبال على الله تعالى، لا أن يكون في عرفات ينتظر أن يؤذن المغرب ليعود إلى شهواته وغفلته مرة أخرى!

وإنما ينتهي عرفات من هنا ليبدأ مرحلة جديدة مع الله تعالى تزوَّد زادًا فيها يستطيع أن يستكمل به السير إلى الله جل وعلا بقوة وهمة وعزيمة، لا أن يكون عرفات يومًا وانتهى، لا...فإن الله تبارك وتعالى لا يحب ذلك من عبده.

فرب عرفات هو رب محرم وشوال وذي القعدة وغيرها من الأشهر وهو يحب من عباده أن يديموا له ذكره ﷻ وأن يكون قلبهم لله جل وعلا وأن يكون توكلهم ويقينهم وثقتهم في الله ﷻ ألا يفتروا عنه، بل أن يذكروا ربهم ذكرًا كثيرًا وأن يسبحوه بكرة وأصيلًا وأن يكونوا كما قال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

فلا يكون في شيء إلا وهو لله جل وعلا ذلك المبدأ الذي ينبغي أن يعقد عليه النية في عرفات، **فإنه إن عقد هذه النية يوم عرفات يوشك أن يغفر الله له** ﷻ إذا رأى منه صدقه في الإقبال عليه ﷻ ورأى منه إخلاصه في الرجوع إلى الله جل وعلا ورأى منه التضرع والبكاء والحزن والأنين على ما فرط في جنب الله تعالى، وعلى ما تكاسل عن ربه ﷻ، وعن فرحه بغير الله تعالى، فما فرح أحد بغير الله إلا بغفلته عن الله تعالى، بم يفرح المؤمنون؟ ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨]، فليفرحوا بربهم ﷻ الذي يرحمهم ويغفر لهم ويوسع عليهم ويتوب عليهم ويعتقهم من النار ويرزقهم ويحفظهم ويتولاهم ويعينهم ويوفقهم ويسددهم ويجعل سيرهم سيرا جميلا في الأولى وعاقبتهم العاقبة الحسنة في الآخرة.

من الذي يفعل لهم ذلك؟ من الذي يأخذ بأيديهم إلى ذلك؟ من الذي يحول قلوبهم على ذلك؟ من الذي يثبت قلوبهم على الطاعة ويربط عليها فلا تزيغ ولا تضل ولا تفتر ولا تمل من الله جل وعلا ومن الإقبال عليه؟ **ذلك الله ربهم وحبيبهم ومحبهم سبحانه وتعالى الذي لا ينبغي أبدًا أن يغفلوا عنه** إذا غفل عنه الغافلون، ولا أن يقصروا في طاعته إذا قصر المقصرون، ولا أن يعصوه إذا وقع في معصيته العاصون الفاسقون.

<u>إكمال الطاعات والفوز بالمغفرة هو سبب العيد</u>

نعود فنؤكد أن السرور والفرح في مواسم المؤمنين بمولاهم جل وعلا، ورضاه عنهم في أن يكونوا من أهله وخاصته في أن يحفظهم في دينهم ودنياهم في أن يرفع رايتهم في أن يأخذ بقلوبهم وأيديهم إليه ﷻ في أن يحبب إليهم الإيمان وأن يزينه في

قلوبهم، وأن يكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان في أن يذكروه لا يفترون في أن يذكروا ربهم لا ينسونه ﷻ وفي أن يدعوا ربهم متضرعين إليه ليلهم ونهارهم وأن يكونوا من أهل الله جل وعلا وأحبائه المتعلقين به المتقربين له بأنواع القربات، يأتمرون بأوامره وينتهون عن نواهيه ﷻ ويرفعون راية دينه ويتحملون في سبيله ﷻ كل شيء.

وَصَل النبي ﷺ المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما فقال: «**قد أبدلكما اللهُ بهما يومين هما خير منهما: يوم الفطر ويوم الأضحى**»[(١٥٣)]، وهما كل عام، وعيدهم الثالث - كما أشرنا - يوم الجمعة، فإذا أكملوا صلواتهم في أسبوعهم جاء **يوم الجمعة** ليحوزوا ثواب هذا الأسبوع فيصبحون معيدين يوم الجمعة، **وإن أكملوا صوم رمضان** إذا بهم يصبحون معيدين كذلك بأنهم حازوا ثواب الله تعالى وحققوا مغفرة الرب والعتق من النار فحق لهم أن يعيدوا؛ فإذا **جاء الحج** كذلك فإنهم في موسم الحج العظيم يقفون بعرفات الله تعالى يباهي الله تعالى بهم ملائكته: «**عبادي أتوني شعثًا غبرًا، أشهدكم أني قد غفرتُ لهم، أفيضوا مغفورًا لكم**»[(١٥٤)] لمن حضر الموسم، أما من حرم بسبب الذنوب والمعاصي ولم يصل إلى هذا الموسم فإن الله تعالى لم يحرمه أجر المصيبة التي وقع فيها وفتح له صيام يوم عرفات، فمن صام يوم عرفة غفر له ذنوب السنة التي قبله وذنوب السنة التي بعده فيصبح الجميع معيدين فرحين برحمة الله تعالى وفضله: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ [يونس: ٥٨].

---

(١٥٣) أورده الطحاوي في مشكل الآثار وحسنه.

(١٥٤) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٣ /٢٧٧)، وقال: رجاله موثقون.

فإذا لم يُغْفَر لهم... ولم يُعْتَقُوا من النار... وظلوا على أحوالهم السيئة التي كانوا عليها... فكيف يُعيدون؟ ليس لهم أن يُعيدوا، على ماهم فيه من التقصير والتفريط والذنوب والمعاصي والغفلة وترك الاستعداد للقاء الله تعالى، ونسيان الآخرة ونسيان الموت كل ذلك يُقسي القلب، ويضعف البدن عن السير إلى الله تعالى، أنَّى يكون لهم هذا المعنى؟!

فضل يوم عرفه ووظائفه

وحديث عرفات، هو أن يعلم المرء فضل عرفات، وأن يعلم حال النبي ﷺ فيه وهو ما يكون سبب المغفرة في هذا اليوم العظيم حتى يصبح المرء معيدا مسرورا برحمة الله تعالى بمغفرة الله تعالى بعتق الله تعالى.

أ. حفظ السمع والبصر واللسان

فأول فضائل عرفات كما ذكرنا أنه اليوم الذي أكمل الله تبارك وتعالى فيه الدين لأهل الإيمان **والفضل الثاني في عرفات** الذي ينبغي أن يلاحظه المرء حتى يكون سببا لهذه المغفرة **أنه يوم من حفظ فيه سمعه وبصره ولسانه غفر له**، وعليه فينبغي أن يكون يوم المؤمنين من أوله إلى آخره على هذا الحال الحسن الذي يرجون به مغفرة الله تعالى ومغفرة الله تعالى فيه مما تتوقف على حفظ اللسان والبصر والسمع أن يجمع المرء سمعه وبصره ولسانه على الله تعالى أن يكون ذلك كله لله جل وعلا اليوم فلا يلتفت ببصره ليرى ما حرم الله، ولا كذلك بسمعه ليسمع ما حرم الله تعالى وكره، ولا ينطق بلسانه ما يكون سببا لسخط الله تعالى عليه أو لعذاب الله له.

ليس ذلك فقط، ولكن كذلك أن يشغل سمعه وبصره ولسانه بما يقربه إلى الله جل وعلا وبما يرفع منزلته بزيادة الحسنات وجزيل الثواب من الله تعالى، **فما أن يبزغ فجر عرفات حتى يركنوا إلى بيوت الله تعالى يعتكفون فيها بقلبهم وسمعهم بقلبهم وقالبهم على الله جل وعلا يرجون حفظ هذه الجوارح** التي إن حُفظت تمنوا مغفرة الله بذلك ﷻ وإن حفظت هذه الجوارح في ذلك اليوم وتحققت لهم المغفرة فذلك أدعى أن يكونوا بعد ذلك حافظين لجوارحهم تتأدب جوارحهم بآداب الدين وتراقب جوارحهم ربهم ﷻ، ويعلمون أن نظر المولى إليهم أسرع من نظرهم إلى المحرمات والمعاصي فيراقبون ربهم ﷻ ويخشون ربهم ويخافون أن يراهم حيث نهاهم أو أن يفتقدهم حيث أمرهم، وإن خرجوا من عرفات بمراقبة جوارحهم فذلك الفوز العظيم.

ب. الصيام (لغير الحاج)

وهو الفضل التالي كما قال النبي ﷺ: «**صيام يوم عرفة أَحْتَسِبُ على الله تعالى أن يغفر به ذنوب السنة الماضية والسنة الآتية**»[١٥٥]، وصيام هذا اليوم، أمر لا ينبغي أن يكون محل تردد من المؤمنين أن يصوموا أو لا يصوموا، بأن يكون عرفة يوم جمعة، أو يوم سبت، فصيام يوم عرفة كما ذكر النبي ﷺ يكفر الذنوب، فحتى لو نهى النبي عن صيام الجمعة منفردا أو السبت منفردا **فإن صيام يوم عرفات مخصوص،** خُص من ذلك المنع؛ لأنه يحمل هذه البشرى العظيمة من الله جل وعلا، **ولو كان لازما أن يصوم يومًا قبله أو**

(١٥٥) رواه مسلم (١١٦٢) كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر.

بعده لبين ذلك النبي ﷺ فلما لم يبينه كان صيام يوم عرفة وحده كافيا في تحصيل هذا الفضل، وإن كان يجوز أن يصومه المرء مع غيره[١٥٦].

ج. القيام بعمل يوازي عتق رقبة

والأمر التالي الذي يحاول المرء به أن يصبح معيدا، وكان ذلك من عادة السلف الصالحين أنهم **كانوا يقدمون إلى الله تعالى في هذا اليوم الكريم ما يعتقون به رقابهم من النار**، وكان كل أحد يحاول أن يعتق رقبة فإن أعتق رقبة فإن الله تعالى يعتق بكل عضو من هذه الرقبة عضوا منه من النار، وقد كان حكيم بن حزام رضي الله عنه يقف يوم عرفات بمائة بدنة مقلدة ومائة رقبة، ثم يعتق هذه المائة رقبة، ويذبح هذه المائة بدنة لله تعالى في هذا اليوم حتى يضج الناس بالبكاء يقولون هذا عبد من عبيدك قد أعتق أرقاءه، قد أعتق عبيده، فأعتق رقابنا من النار.

فإذا لم يجد أحدهم عتق رقبة تصدق بديته أربع مرات أو ست مرات فإذا بها اثنا عشر ألف أوقية أو درهم أو فضة، يتصدق بها عن نفسه، يعتق بها نفسه من النار تصدق بمقدار وزنه ذهبا أو فضة.

أو يسبح في اليوم اثني عشر ألف تسبيحة توازي اثني عشر ألف درهم يفدي بها نفسه من النار، وهذا سهل قريب ينبغي أن يكون في اهتمام المؤمنين اليوم، كيف يعتقون رقابهم من النار بكثرة الصدقة بكثرة التسبيح والتحميد والتهليل وذكر الله تعالى، وهذا دأب أهل الإيمان كما ذكرنا عندما لا يكون عندهم المال الذي يجاهدون به

---

(١٥٦) انظر صيام السبت في زاد المعاد.

وينفقون منه ويتصدقون أن يتبعوا وصية النبي ﷺ على هذا العمل الذي به يسبقون غيرهم ولا يلحقهم غيرهم فيه وهو أن «**يسبحوا وأن يحمدوا ويكبروا**»(١٥٧) لا أن يكونوا كمثل حالنا الآن، أن يقول (بركة يا جامع) ليس عندي شيء، فيجلس سعيدًا أنه لا ينفق ولا يبذل ولا يتصدق!!!

د. قول لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير

وأما حال النبي ﷺ فكان عامة قوله يوم عرفات: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وكان يقول: «**أفضل ما قلتُ أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير**»(١٥٨)، وهذا حديث طويل له معناه في زيادة توحيد الله تعالى في قلب المؤمن.

فيتعلم من قوله «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له**» كيف يُقر لله تعالى بالوحدانية والألوهية، كيف يقر له بالمحبة والإقبال، كيف يكون يقينه على ربه وثقته فيه وتوكله عليه خوفه منه ورجاؤه وطمعه فيه، لا يرجو غيره ولا يخاف سواه ولا يرضي غيره بسخطه ﷻ بل يرضي ربه بسخط الناس جميعا لا يخاف في الله تعالى شيئًا.

وفي قوله: «**له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير**» يعلم أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن يطلع بذلك على أسمائه الحسنى وصفاته العليا التي تبين له أن كل شيء

---

(١٥٧) يشير إلى ما رواه مسلم (١٠٠٦) كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف.

(١٥٨) رواه الإمام الترمذي في سننه (٣٥٨٥)، وقال: غريب من هذا الوجه. وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (٢/٣٤٥).

في هذه الحياة الدنيا إنما هو خلقه وأمره وأن كل دابة هو آخذ بناصيتها وأن كل شيء يقع إنما هو بتقديره وقضائه ﷻ وما كان ليقع في الدنيا شيء إلا وقد قدره تقديرًا جل وعلا وخلقه فأحسن خلقه جل وعلا، فحينئذ يتعلم المؤمن الصبر على هذه الأقضية ويتعلم الحكمة الواقعة منها ويتعلم الرضا بما ينزل عليه من الله جل وعلا وأن يكون ساكنا تحت مقدور الله ﷻ لا يغضب إلا لغضبه ولا يفرح إلا لما يكون سبب رحمة الله له وكذلك لا يحزن إلا لما يبعده عن الله جل وعلا يسارع إلى ربه في الخيرات يحمل بقلبه الخير والمحبة لكل أحد يرجو بذلك رحمة الله تبارك وتعالى لا يأنس بغير ربه ولا يطمئن إلا إليه ولا يثق إلا فيه لا يتوكل على هؤلاء الزائلين كما قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

ونقتصر من الشرح على هذا المعنى الذي ينبغي أن يخرج اليوم من قلوب المؤمنين إلى الله تعالى بأن يوحدوا ربهم، بأن يرضَوْا به ربًّا ويرضوا به إلهًا ويثقوا فيه ويتوكلوا عليه ولا يطمئنوا لغيره ولا يخافوا غيره ولا يرجوا إلا إياه، إليه منيبوا إليه مخبتون إليه متذللون إليه متضرعون إليه متذللون لا يتضرعون ولا يتذللون إلا له ﷻ، فيؤثرون ذكره ويدمنون كتابه ويقبلون عليه ويكون أشد شيء عليهم أن يعصوا ربهم أو أن يغفلوا عنه جل وعلا.

هـ. كثرة الدعاء والاستغفار والصلاة على النبي ﷺ

وهو الحال الأخير من أحوال المؤمنين في هذا اليوم وهو **كثرة الدعاء والاستغفار والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم** يكثرون الدعاء لربهم جل وعلا أن يقبلهم،

أن يغفر لهم، أن يتوب عليهم، أن يرزقهم، أن يقيهم شرور أنفسهم وسيئات أعمالهم أن يقيهم شر الإنس والجن، أن يرفع البلاء النازل عنهم وعن أمة الإسلام أن ينصر الإسلام والمسلمين أن يعزز كلمة الدين أن يرفع راية المؤمنين.

وإذا اجتمع يوم عرفة مع الجمعة فقد اجتمع دعاء عرفة ودعاء لجمعة وبذلك ازداد فضل هذا اليوم وليس كما يقول الناس أنه: إذا جاء يوم عرفات يوم جمعة كان بسبع حجات وغير ذلك **فهذا مما لا أصل له**، إنما الأصل والبركة أنه قد اجتمع للنبي في حجه صلى الله عليه وآله وسلم يوم الجمعة ويوم عرفة وكان اجتماع ذلك مزيد فضل لهذا اليوم ومزيد حرمة له في استجابة الدعاء من الله تبارك وتعالى وفي كثرة العمل الصالح يرجى بذلك أن يكون في محل القبول عند الله جل وعلا.

موانع المغفرة في عرفات

وليحذر المؤمنون ما يكون مانعًا من قبول أعمالهم ومن رفع دعواتهم إلى الله تبارك وتعالى، وليحذروا مما يرد أعمالهم عليهم في هذا اليوم من القطيعة ومن الإصرار على المعصية والكبر والاختيال.

أما القطيعة، فكما ذكرنا قبل كثيرا أنه لا يغفر لمتشاحنين كما ذكر النبي ﷺ عندما يطلع الرب ﷻ ويباهي بأهل الموقف فإنه يغفر لكل أحد ﷻ فإن كانا متشاحنين كيف يغفر لهما كما ذكر النبي ﷺ: «**أَنْظِرَا هذين حتى يصطلحا**»[159]، فإن كان التشاحن أو التباغض أو التدابر أو شي ء من ذلك موجودًا فليسارع المرء بأن يتخلص من تلك

(١٥٩) رواه مسلم (٢٥٦٥) كتاب البر والصلة، باب النهي عن الشحناء والتهاجر.

المظالم، ولِيتحلله منها اليوم، قبل ألا يكون دينار ولا درهم، وإنما هي الحسنات والسيئات كما ذكر المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم[١٦٠] فلا يمر عليه يوم المغفرة وهو على هذه الشحناء فلا يقبل عمله، بل يرد، ولا تقبل دعوته، لذلك ينبغي أن يسارع الكل في أن ينهي ذلك حتى يعود عليه بالتوبة والمغفرة والعتق من النار وأن يباهي الله تبارك وتعالى به ملائكته فيصبحوا معيدين.

والأمر الثاني الذي يحجب المغفرة **هو الإصرار على المعاصي والسيئات** بأن يأتي المرء عرفات ويريد أن يغفر الله تبارك وتعالى له فيعمل بعض الأعمال وهو مُصِرٌّ على أن يعود إلى سابق عهده من المعاصي التي يأتيها في ظاهره وباطنه، فهو يعلم كيف يرتكب من المعاصي والذنوب والجنايات في الظاهر والباطن ما يكون سببا لتلطيخ وجهه وسمعته في الأولى وعذابه في الآخرة ولو كشف الله قلبه وسره لافتضح بين الناس في الدنيا، فإن كان الله تعالى قد ستر عليك هذه الذنوب والمعاصي فلا تخرج من عرفات إلا وقد عزمت العزم الأكيد على ألا تعود لذنب أبدا، لأن عكس ذلك معناه أن الله تعالى يفتح لك باب المغفرة وتصده بالإصرار على السيئات والذنوب؟ يفتح لك باب التوبة وتغلقه بسوء عملك وخبث طويتك وإصرارك على بقائك على ما كنت فيه من محاربة الله تعالى سرًّا وجهرًا وتستخفي من الناس ولا تستخفي من الله تعالى وهو معك؟!

(١٦٠) يشير إلى ما رواه البخاري (٢٤٤٩) كتاب المظالم والغصب، باب من كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له.

والأمر الثالث أن تتخلص من **الكبر والاختيال،** فكما ذكر النبي ﷺ: «**لا يدخل الجنةَ من كان في قلبه مثقالُ ذرة من كِبْر**»[161] بأن يأتي عليه عرفات ويرى نفسه شيئا أو يرى نفسه له حال أو مقام مع الله جل وعلا أو أن ينظر إلى الناس بنظرة الكبر والاحتقار لأعمالهم وأقوالهم وتصرفاتهم أو أن يرى أنه له فهم وعلم لم يصل إليه أحد من الآخرين، ولكن يكون على الانكسار والتذلل لله تعالى.

وكان السلف يحضرون عرفات وهم أولياء الله جل وعلا ولكنهم **يغلب على قلوبهم الخوف من الله ﷻ وإنكار الذات واحتقار النفس والتذلل والإخبات لله تعالى** حتى يقول قائلهم: اللهم لا ترد أهل الموقف من أجلي! فيدعو الله تعالى ألا يكون هو سبب البلاء على أهل الموقف، لا أن يظن نفسه شيئا ولكن يقول: موقف ما أشرفه وأرجاه لأهله لولا أني فيه! ويقول الفضيل رحمه الله تعالى: إن ظننت أن في الموقف من هو شر مني ومنك فبئس ما ظننت!

لذلك ينبغي أن يغلب على قلب المرء الانكسار والتواضع لله تعالى وأن يخرج من قلبه الاختيال والكبر ورؤية النفس والعجب حتى يكون أهلا لرحمة الله؛ لأن الله لا يدخل جنته من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، بأن يرى لنفسه عملًا أو حالًا أو قولًا أو يرى نفسه شيئًا ولكن يرى نفسه أقل الخلق وأن الله تعالى يرد أهل الموقف كلهم بسببه فلا يظن لنفسه عملا ولا شرفًا ولا جاهًا عند الله تعالى، لأنه من كان على هذه الحال فهو أسوأهم عند الله تعالى وهذا يدعو المرء إلى التذلل والإنابة له ﷻ.

(١٦١) رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه.

فليكن هذا اليوم، يوم ترك الإصرار على الذنوب والمعاصي،،،

يوم التوبة،،،

يوم الإنابة إلى الله تعالى،،،

يوم البكاء،،،

يوم الندم،،،

يوم العزم على ألا يعود لذنب أبدا إلى أن يلقى الله جل وعلا

فإن تحقق المرء بشيء من هذه الأمور في عرفات، يرجو من الله تبارك وتعالى العفو، فالرجاء فيه عظيم في هذا اليوم الذي اجتمعت فيه قلوب المؤمنين من عباد الله تعالى وأوليائه الصالحين، فيرجى أن يقبل فيه الناس لأحدهم فإن الله تعالى يهب في هذا اليوم مسيئهم لمحسنهم ويتجاوز عن الذنوب العظام وتتنزل المغفرة والرحمات **حتى يحثو إبليس التراب على رأسه مما يرى من رحمات الله تبارك وتعالى ومغفرته في ذلك اليوم العظيم** فلا بد حينئذ أن يغلب الرجاء على قلوب المؤمنين أن يغفر الله لهم وأن يتجاوز عنهم حتى يصبحوا في عيدهم مسرورين بربهم فرحين بمغفرته ورحمته جل وعلا.



توضح هذه الرسالة كيف يصحح المرء علاقته وسيره إلى الله تعالى في الأيام الموصلة لموسم الحج. فإنه إن كانت المغفرة في رمضان متعلقة بالقيام والصيام، وبما يتعلق من أعمال بين المرء وبين ربه سبحانه وتعالى، فإن المرء لا يستكمل سيره إلى الله ولا يستكمل المغفرة في عرفات، في موسم الحج الأكبر، إلا بأن يصحح العلاقة بينه وبين الناس. فيتخلص من إثمه وفسقه وكذبه ورفثه وسخريته وأخلاقه السيئة، وغير ذلك مما نهى النبي ﷺ عنه.ثم يستكمل سيره بأن يكون بارًا،بأن يأتي بأعمال الشريعة كلها من ناحية،ومن ناحية ثانية الإحسان التام بينه وبين خلق الله كما قال ﷺ: « البر حسن الخلق»؛ ابتداء من بره بنفسه، وبره بوالديه، وبره بأهله وولده، وبره بإخوانه ومشايخه وأهل الفضل عليه،ثم بره بالناس أجمعين،حتى يصير من الأبرار الذين يتنعمون في الدنيا والآخرة بمعرفة الله ومحبته والقرب منه، كما قال تعالى:(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ).